طريق الحرية

ابوثرب

للكاتب الأمريكي الحر

هوارد فاست



سعد لبيب

المكتب الدولي للترجمة والنشر

هوارد فاست



تعريب

سعد لبيب

الناشر

المكتب الدولي للترجمة والنشر

(وجيه راضي وشركاه)

١٠ شارع عدلى ت : ٧٦٧٥٣ ر ٤

التوزيع فى مصر
المكتب الدولى للترجمة والنشر
(وجيه رياض وشركاه)
١٠ شارع جلال - القاهرة

التوزيع فى السودان والبلاد العربية
شركة فرج الله للصحافة
القاهرة ص . ب ١٥٢٥

طبع فى
دار قنديل للطباعة والنشر
٥٩ (أ) شارع العباسية - القاهرة



مقدمة

هذا الكتاب اعجبنى . . أعجبنى جدا حتى أننى لم أملك نفسى حينما قرأته منذ حوالى ثلاث سنوات إلا أن أفرغ لنقله إلى العربية توا وبأقصى ما أستطيع من دقة حتى يستمتع من يقرأ هذه الصورة على نحو مااستمتعت حينما قرأت الأصل . .

ولا أدرى إن كنت قد وفقت فى هذا أم لا ولو أن أصدقائى الذين قرأوا هذا الأصل وعلموا بهذه الصورة سارعوا بانتزاعها من مرقدها القديم حيث استمتعت بنوم هادىء طوال هذه السنوات الثلاث ودفعوا بها إلى المطبعة . . ولكنهم كما قلت اصدقائى . . وأنا أخشى دائما مجاملات الأصدقاء ... ! !

كنت أقول أن هذا الكتاب أعجبنى . . ونسيت أن أقول أن اعجابى به لم يكن مصدره إعجابى بكاتبه . . فأنا لم أكن قد قرأت لهذا الكاتب من قبل وبالتالى لم أتأثر به . . بل انى لم أكن قد سمعت به حتى قرأت له هذا الكتاب من سنوات . .

وقد خطر لى حينئذ أن هوارد فاست ـ صاحب هذه القصة الطويلة ـ لابد وأن يكون واحدا من الكتاب الأميريكين الملونين الذين يدافعون عن حقهم فى مجرد أن يعيشوا فى بلادهم كما يعيش غيرهم من الناس أى كما يعيش البيض . . فالقصة تصور حياة السود الكالحة العصيبة فى الولايات الجنوبية من أمريكا ونضالهم المرير على طريق الحرية . . . والذين

يستطيعون من خلال تجاربهم الشخصية أن يرسموا فى بساطة ووضوح خطوط شخصيات أبطالهم الملونين وما يتفاعل فى نفوسهم من أحاسيس يرهقها الضغط والإذلال وتسيطر عليها الرغبة الطيبة فى الحياة . .

ولكن ظنى هذا لم يكن صحيحا . . فقد تبين لى بعد أن أمعنت فى القراءة لهذا الكاتب وفى القراءة عنه أنه ليس من الأمريكين الذين تطاردهم لعنة السواد . . فهو أبيض اللون من سلالة عريضة من البيض . . .

ولكنه أيضا أبيض القلب فهو يكره التعصب ويضيق به ويدعو مواطنيه جميعا إلى التخلص منه . . وهو فى هذا لا يمثل الرجل الشريف الطيب التماب فحسب . . ولكنه أيضا يمثل الرجل الذكى الذى يعلم تماما أى مصلحة انانية تكمن وراء هذا اللون من التعصب وتدعو له وتحافظ عليه وتقاوم كل محاولة للتخفيف منه .. والذى يعلم كذلك أى مصلحة تعود على مواطنيه الذين لا تدفعهم الأنانية ـ فى التخلص من هذا العار .

والرجل الذكى الطيب القلب لابد أن يعلم أن اضطهاد الملونين فى بلاده ـ أمريكا ـ ليس هو وحده النقطة السوداء التى تشوه جمال بلاده . . فهناك نقط أخرى عديدة يدركها بعقله الذكى وقلبه الطيب . .لذلك فهو لا يقصر فنه على الدفاع عن قضية الملونين بل نراه يتتبع هذه النقط السوداء جميعا بعرضها على مواطنيه ويحلل لهم أسبابها ويدعوهم إلى تخليص « الحياة الأميريكية » منها .

كتب هذه القصة ـ طريق الحرية ـ فى عام ١٩٤٤

وكان قد كتب قصة طويلة أخرى فى الدفاع عن القضية نفسها فى العام السابق هى قصته الشهيرة « المواطن توم بين » .. وفى عام ١٩٤١ صدرت له قصة « الحدود الأخيرة » تصور كفاح الهنود الحمر فى سبيل الحرية والحياة ـ وهم فئة أخرى من الفئات التى طحنتها « الحياة الأميريكية » .. وفى عام ١٩٤٨ ظهرت قصة « الأطفال » وهى قصة طويلة قصيرة عالج فيها حياة الفاقة التى يحياها سكان الأحياء الفقيرة فى نيويورك . . وفى السنة نفسها صدرت له قصة طويلة أخرى سماها « كلايتون » تناول فيها أزمة العمال الأميريكيين من خلال تصويره لحركة إضراب قام بها العمال فى أحد المصانع الصغيرة .

وقد صدرت له أخيرا قصه بعنوان « أشواق ساكووفانزيتى » .. وساكو وفانزيتى عاملان أمريكيان ضاقت السلطات الأميريكية بنشاطهما فى سبيل خدمة العمال الأميريكين فلفقت ضدهما جناية قتل فى عام ١٩٢٠ وبالرغم من الأدلة القاطعة التى أثبتت عدم وجود أية علاقة لهما بها من قريب أو بعيد فقد صدر ضدهما حكم الإعدام .. . ونفذ الحكم رغم احتجاجات الرأى العام العالمى تماما كما حدث فى مصرع العالمين الأميريكين أثيل وجوليوس روزنبرج على يد العدالة الأميريكية .. وقد أهدى فاست قصته هذه « الى أولئك الأميريكيين الشجعان الذين فضلوا بالأمس واليوم .. حياة السجن بل ومواجهة الموت ، على خيانة المبادىء التى أعتنقوها أو البلاد التى أحبوها أو الشعب الذى نالوا ثقته .. »

ولست أريد أن أقول أن هذه قائمة بإنتاج هوارد

فاست وإنما كل الذى أردت أن أقوله هو أن هـــذا الرجل قد جند قلبه لخدمة قضايا الحرية والسلام . وهى القضايا التى تعبر عن المصالح الحقيقية لجمهور مواطنيه الأمريكيين وإن كانت تطعن فى الصميم مصالح الفئات المستغلة له وتجار الأسلحة والموت الذين يسيطرون على جهاز الحكم هناك . . .

ومن أجل هذا لاقت قصص هوارد فاست فى أمريكا إقبالا رائعا من جمهورها وضرب بعضها أرقاما قياسية فى الربح ـ وهو عنصر التقدير الوحيـــد الذى يملكه الناشرون الأميريكيون ـ وكانت بعض هـذه القصص من بين الكتب التى أوصت بها نوادى الكتاب فى أمريكا . . .

ومن أجل هذا أيضا هاجمه النقاد الأميريكيون الرسميون وقالوا عنه انه من « ناشرى الملابس القذرة » وهو التعبير الذى اطلقوه على عـــدد من الكتاب الأميريكيين المحدثين الذين يتعرضون بالتحليل والنقد لهذا المظهر أو ذاك من مظاهر الحياة الأميريكية من أمثال همنجواى وفرلنكن وكلدوال . . ولكن الهجوم على فاست كان أعنف من كل هجوم آخر فإن « مثيرى الأقذار » الآخرين إنما يكتفون بعرض ناحية من نواحى « القذارة » فى الحياة الأميريكية . . مجرد عرض تختلف جودته باختلاف المقدرة الفنية لكل كاتب .. فهم لا يتعمقون فى أساس المشكلة ولا يهتمون ـ وربما لا يعرفون ـ كيف يشخصون هذه الحالة . . وبالتالى يلتبس حلها عليهم وعلى الآخرين .. وهـــذه طريقة تختلف كل

الاختلاف عن الطريقة التي يتبعهـا فاست في عرض موضوعاته .. فهو يهبط معها إلى الجذور والأعماق ويقدم لك عناصر المشكلة بطريقة واعية مدركة ..
ومن هنا كانت خطورة فاست بالنسبة للنقاد الأميريكيين الرسميين .. ومن هنا كان حرصهم على تجريحة في بعض الأحيان .. وعلى تجاهله تماما في أكثر الاحيان .
ومن أجل هذا أيضا تعرض هوارد فاست لمتاعب لا تنتهي من جانب الحكومة الاميريكيـة وأجهزتها الرسمـيـة المختنفة .. وتتبعه ماكارثي وأعوانه بالضغط والإرهاب والاستجوابات التي لا تنتهي بحجة التحقيق في «النشاط غير الاميريكي» حتى أنهم اتهموه عام ١٩٤٧ بإهانة الكونجرس الاميريكي وهي التهمة التي يوجهونها لكل من يرفض الإجابة عن أي سؤال توجهه إليه لجنـة ماكارثي - وكان السبب المباشر للتحقيق هو انضمامه للجنة مساعدة المهاجرين من الضغط النازي .. !! ـــ وصدر عليه الحكم فعلا عام ١٩٥٠ بالحبس ثلاثة أشهر ونفذ الحكم طبعا .. !!
والآن .. فهل تريد ان تعرف شيئا آخر عن حياة هوارد فاست .. ؟ !
اظن ان افكار الرجل ومبادئه وانتاجه هي اغلى ما في حياته .. ولذلك فليس امامي ما اقوله عنه غير القليل جدا .. ..
فهو كاتب معاصر مازال يعيش في نيويورك وولد بها في ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ وتلقى تعليمه في مدرسة جورج واشنطن العليا وكان في اثناء دراسته يشغـل وظيفة صغيرة في المكتبة العامة بنيويورك . . بدأ الكتابة في سن مبكرة جدا ونشرت له أول قصة عام

١٩٣٢ - أى فى سن الثامنة عشرة - ولكنه لم يستطع احتراف الكتابة فاضطر إلى الاشتغال بعدد من الأعمال الغريبة كالبناء والحفر حتى حصل على إعانة دراسية تكاد تكفيه ثمن الخبز عام ١٩٣٥ فعاود الكتابة من جديد . تزوج عام ١٩٣٧ ثم فاز بجائزة « أوبريان » لأحسن قصة عام ١٩٣٩ . . .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ألحق بوزارة الاستعلامات ثم عمل مراسلا خارجيا لمجلتى « إسكوير » و « كورونيت » .

وبعد . . . فهذه هى حياة الرجل . . . .

ولكننى كنت أتحدث عن شىء آخر . . كنت أتحدث عن الكتاب . . عن «طريق الحرية» ولست أدرى ما الذى جرنى إلى الحديث عن هوارد فاست . . .

كنت أقول أن هذا الكتاب أعجبنى . . أعجبنى جدا

لم يكن مصدر إعجابى فقط أنه يدافع عن قضية عادلة من قضايا الحرية بل كان مصدر إعجابى الاول هو كيفية دفاعه عن هذه القضية . . .

قصة طويلة متناسقة الموضوع وشخصيات تنبض بالحياة وبكل عواطف البشر . . الحب والحقد على السواء . . تتحرك وتحس كما يتكلم الناس وكما يحسون فى حياتهم العادية . . . لا افتعال ولا مبالغة ولا حشر للجمل الرنانة حتى أنك تعيش معهم وتنفعل وتضحك وتضرب الارض بقدميك رغم كل هذه الاميال والسنوات التى تفصلنا عن أبطال هذه القصة . .

إنها عمل فنى كامل ..

وإذا لم تصدقنى .. فأقرأ هذه القصة . . . ! !

سعد لبيب

الفصل الاول

استيقظت « راشيل » مبكرة فى صباح ذلك اليوم البارد من أيام نوفمبر على صوت الغربان .. كانت ممددة فى فراشها وقد تكومت ملابسها حول عنقها والتصقت « جينى » بصدرها الدافىء .. واستمرت تستمع إلى غناء الغربان .. من بعيد .. فى ذلك النغم الحزين ؛ الذى لم يكن حزينا بالنسبة لراشيل فقد أعتادت أن تستمع إليه منذ أمد بعيد عند كل شروق .

وأخذت الطفلة تتحرك عند صدرها الدافىء فهمست راشيل « إهدئى يابنتى .. اهدئى واستمعى إلى هذه الغربان العجوز .. استمعى إليها »

ولكن النهار كان قد بدأ - ولاشيء يمكن أن يوقفه ، وكان فراشها المحشو بالقش دافئا .. وكم تمنت راشيل أن تظل راقدة هكذا ، ولكن الشمس فجأة ذهبت بضباب الصباح وملأت الكوخ الخشبى بالضوء وتسللت أشعتها من بين فجوات الأخشاب .وأخذ «جيف »يتمدد ويضرب الأرض بقدميه ، واستيقظت جينى تماما وأنسلت بعيداً عن صدر راشيل الدافىء ، أما « ماركوس » فقد استمر شخيره فركله « جيف » وسرعان ما تماسك الأثنان على الأرض .

ووقفت راشيل وصاحت فيهما . « أخرجا أنتما الأثنان . أخرجا من هنا » ثم ابتسمت لنفسها ؛ وأخذت تعجب ، كيف يمكن لامرأة صغيرة الحجم مثلها أن يكون لها مثل هذين الصبيين الأسودين الضخمين . يخرجان من بين رجليها وقد أرتبط كل منهما بجسمها بحبل قصير . على كل حال فان لها رجلا ضخما وهؤلاء هم أبناء هذا الرجل الضخم « جيدون » وملأتها هذه الفكرة فخارا . !!

كانت مزرعة « كارويل » فى أيام مجدها - أى قبل ذلك بحوالى عشر سنوات - تشتمل على أثنين وعشرين ألف فدان من هذه الأرض الطيبة من مقاطعة كارولينا الجنوبية ، وكان يفصلها عن الشاطىء حوالى مائة ميل وتمتد فى لين ورفق كخط يفصل مياه البحر عن المرتفعات الداخلية وعندما كانت هذه الأرض تزرع كلها قطنا كان الفدان ينتج أكثر من أربعة قناطير ، وعندما كانت تتفتح لوزاته كان يخيل إليك أنك أمام بحر أبيض يمتد إلى أقصى ماترى العين .

وكان يشرف على هذا المنظر كله قصر المالك الكبير ، يرتفع أربعة أدوار ويتكون من أثنتين وعشرين غرفة ويبدو بعمدانه الكبيرة كمعبد يونانى ضخم - يقوم على تل مرتفع يكاد يكون فى منتصف المزرعة تماما ، وإذا وقفت فى مساكن العبيد التى تبعد حوالى نصف ميل ونظرت إلى هذا البناء الكبير زاد اقتناعك بشبهه لمبعد يونانى ضخم .

ولكن ذلك كان فى أوقات غبرت . أما فى هذه السنة .. سنة ١٨٦٧ فلم يكن هناك قطن فى كارويل . وقيل إن ددلى كارويل كان يقيم فى مدينة تشارلستون ولكن أحدا لم يكن يعرف أين يقيم على وجه التحديد ، وقيل أيضا أن ولدى كارويل قد قتلا فى الحرب ، وقذفت الديون والضرائب المتأخرة بهذه المزرعة إلى تلك الحالة الغريبة من الجمود التى شملت معظم أراضى الجنوب ، وقيل أن الحكومة أصبحت مالكة لهذه المزرعة الكبيرة ، وقيل كذلك أن كل عبد سابق فى كارويل سيعطى أربعون فدانا وبغل .. وكانت هذه الاشاعات تسرى سريان النار ولكن أحدا لم يكن يعرف ما الذى يجرى على وجه التحديد .

ومع ذلك فقد استمر العبيد المحررون يعيشون هناك ، وكان جزء كبير منهم قد بقى طوال مدة الحرب يزرع ويحصد ويعنى بالأرض . أما الباقون - ومنهم جيدون - فقد هاجروا وانضموا إلى جيش الاتحاد .. وهناك فريق آخر منهم هربوا واختفوا وبالرغم من أنهم حرروا جميعا

إلى أن معظمهم قد ظل بالمزرعة ، لا لأنهم يخشون العقوبة التى توقع على العبيد الهاربين ، بل لأن أحدا منهم لم يكن يعرف مكانا آخر يذهب إليه ، فهذا منزلهم ، وهذه أرضهم ، وهـذا وطنهم ، وكانت هـذه الأرض هى دائما كل ذلك .

ومنذ جيل كامل كانت عائلة كارويل تقضى معظم أوقاتها فى مدينة تشارلستون تاركة المزرعة لنظارهم وبعد أن انقضى العام الثالث من الحرب زار ددلى كارويل المكان وعندما غادره أغلق المنزل الكبير واصطحب خدمه معه ، وغادر آخر ناظر للاسرة هذه المزرعة منذ سنتين . ومنذذلك الحين ترك العبيد وشأنهم فلم يزرعوا القطن — فهو محصول مالى ولم يكونوا فى حاجة إلى هذا النوع من المحاصيل ، ولم يفهموا ابدا سره فزرعوا القمح والأرز فى المناطق المنخفضة من المزرعة وزرعوا الخضروات فى الحدائق وأخذوا ؛ يربون الخنازير والدجاج — وكان هـذا هو طريقهم فى الحياة .

لقد كانوا أكثر حظا من كثير غيرهم من العبيد المحررين . لقد نزلت عليهم طوابير من الجنود ثلاث مرات فأتت على كل شىء فى المزرعة ولكنهم استطاعوا أن يجتازوا هذه الفترات من الجوع والحرمان ؛ ولم تقتل القوات المهزومة منهم غير أربعة أشخاص ولكن هـذا لم يكن سيئا جـدا بالقدر الذى حدث فى معظم الأماكن التى عاش فيها عبيد محررون .

والآن ـ أصدر ذلك الشىء البعيد المسمى « الكونجرس » أوامره بأن يذهب المحررون للانتخاب .. ولك أن تتأكد من أن هـذا الحادث كان شيئا عجيبا فى هذه الأرض .

* * *

كان « ماركوس » هو أول من رأى « جيدون » عائداً من الانتخاب .. وقد ظل حياته بعد ذلك يذكر ذلك اليوم.

وقبل ذلك بأربعة أيام دعا « جيدون » و« الأخ بيتر » كافة الرجال ممن بلغوا الواحد والعشرين وكان هذا السن موضع تردد كبير . فمن أين لأحدهم أن يعرف تماما هل هو فى العشرين أو فى الواحد والعشرين أو فى الاثنين أو العشرين أو غير ذلك ؟ وكان على الأخ بيترحينئذ أن يكد ذاكرته طويلا . وأخيرا استطاع أن ينتقى من بينهم سبعة وعشرين رجلا يذهبون للانتخاب .

والتفت هؤلاء إلى جيدون يسألون«والآن ماهوهذا الشىء - الانتخاب»

وأدرك ماركوس أنه كان من الطبيعى جدا أن يسألوا جيدون فى هذا الشأن . إنهم يتوجهون بالسؤال إلى الأخ بيتر عندما يكون متعلقا بالسماء أو الموت ، أما فى غير ذلك من الشئون كالزراعة والمرض وغيرها فانهم كانوا يتجهون دائما صوب « جيدون » .

والآن .. لقد عاد هؤلاء الرجال من الانتخاب . لقد رأى « ماركوس» من أعلى التل : وعلى بعد ميلين من ذلك الطريق الملىء بالتراب جماعة من الرجال يسيرون معا وفى بطء . فهبط ماركوس من أعلى التل يصيح « إنهم قادمون .. ! »

وجرى الصغار وراءه وتعالت صيحاتهم حتى لقد كانت تسمع على بعد ميل كامل وخرج الجميع من أكواخهم ليروا ماذا يجرى . . وظنت راشيل أن أحدا قتل . . وكان عليها أن تصفع ماركوس مرتين كى تفهم شيئا مما يقول .

— « من القادم ؟ »

— « والدى »

وصاحت الأخت مارى - « جيدون ؟ » ، وصاح شخص آخرى « الحمد لله » فعبر بهذا عن عواطف الجميع . ووجه الجميع أبصارهم نحو الطريق اللانهائى ، واستطاعت راشيل أن تتبين جيدون بقامته الضخمة .

كان جيدون ضخم الجثة كبغل كبير ، عريض الكتفين ، رقيق الوسط

طويل الساقين . ولكنه لم يكن كما يذهب المثل جسم بغل وعقل عصفور فقد كان للرجل شخصيته وكان هناك أكثر من سبب لالتفاف الناس حوله .

وكان هو أول من وصل وقدرت راشيل ما هو فيه ،فانهذه الخطوات البطيئة وهذه الاغفاءه تعنى أن وراءه أميالا طوالا . كان يحمل بندقيته على النحو الذى تعلمه فى الجيش وعلى كتفه حقيبته،لا بد أن بها شيئا للصغاروكان يسير إلى جانبه الأخ بيتر ، طويل هزيل لاسلاح معه ، على نحو مايجب أن يكون عليه رجال الدين ، ثم الأخوين جيفرسون ومع كل منهما سلاحه ومن بعدهما هانيبال واشنطونفىقامته الصغيرة ثمجيمس وأندرووفردينا ند وألكسندر وهارولد وباكستر وتروبر .وكان هؤلاء جميعا رجالا لايحملون اسم أى عائلة . ولكن رويدا رويدا قد يتذكر الواحد منهم اسم عائلة مافيحمله ولكن هذا لم يكن بالأمر الهين . فقد كان معظمهم غير قانع بما يحمله من اسم .

وانهالت الأسئلة على الرجال سريعة قوية كمطر كثيف .

« ماهى هذه الانتخابات ؟ »

« كيف لم تأت بشىء معك ؟ وأين هذه الانتخابات ؟ »

« هل اشتريت الانتخابات ؟ »

وصاح الأخ بيتر فى يأس « أيها الاخوة . . أيتها الاخوات . . أيها الأطفال . . قليلا من الهدوء . . وسنجيب على أسئلتهم جميعها »

وأقبل الرجال على زوجاتهم وأطفالهم يقبلونهم وأخذ جيدونراشيل بين ذراعيه وقبلها فى رفق وحنان . وكان بعض الرجال قد أحضر معه بعض الحلوى ،أخذ فى توزيعها على من حوله ؛ وأخيرا طلب الأخ بيتر من الجميع أن يهدأوا ؛ وبدأ يتكلم .

« سيحدثكم الأخ جيدون عن هذه الانتخابات فهى كحفلات العرس أو أعياد الميلاد ملك للجميع . فان الحكومة تمد يدها اليمنى القوية ـ

كما فعل القديس جبرييل - وتقول إفصح عن نفسك ، وقد فعلنا. نحن ذلك واشترك معنا أكثر من خمسمائة شخص بين سود وبيض . لقد طلبت الحكومة أن نختار نائبا عنا . وقد اخترناه . لقد اخترنا جيدون »

ونهض جيدون فى بطء ترمقه عيون الناس فى شىء من عدم التصديق. وأدركت راشيل أنه متهيب . فقد كانت تعرف كل خفقة من خفقات جيدون ولكن مامعنى أنهم اختاروه نائبا عنهم ؟

وارتفع صوت جيدون . . « لقد ذهبنا وانتخبنا » كان صوته رخيما ولكنه كان يتكلم فى بطء فقد كان يفكر فى كل كلمة يقولها ويحاول أن تكون فى وضعها الصحيح .

« والأنتخاب . . . . »

وتذكر جيدون كيف حدث هذا منذ أيام قليلة مضت عندما ذهبوا إلى القرية للانتخاب وكان بينهم جميعا شك كبير فيما هو هذا الانتخاب وقد حاول كل من جيدون والاخ بيتر أن يفسراه على أنه تقرير ارادى لمستقبل الجميع فانهم الآن احرار ولهم أصوات واستعمال هذا الصوت هو الانتخاب ولكن هذا كله لايعدو أن يكون شيئا مجرداً ومن شأن هذه الاشياء المجردة أن توقعهم فى حيرة فما عليهم إلا أن ينتظروا فيعرفوا كيف تسير الأمور .

وقد حاول جيدون الآن أن يذكر لمستمعيه ماذاحدث عندماجاءدوره.. المسجلون فى جلوسهم حول مائدة طويلة وقد فتحت أمامهم كتب كثيرة والاعلام ذات النجوم الكثيرة تتحرك من ورائهم . وعددمن الجنود يقفون للحراسة . وصناديق الانتخاب ، وكيف أعطيت له قطعة من الورق كتب فى أعلاها « مؤيد لجمعية تأسيسية » وتحت هذه العبارة « معارض لجمعية تأسيسية » وتحت العبارتين « صوت على أحد الرأيين بوضع علامة فى المساحة الموضحة » وكيف كان السود والجنود يتحدثون فى الشوارع طوال هذا اليوم عن واجب كل رجل أسود فى أن يؤيد فكرة الجمعية

التأسيسية . ولم يكن هذا بالأمر الذى يستعصى على الفهم . فان الدستور من شأنه من يخلق عالما جديدا .. أو هكذا يقولون على الأقل . وعندما أخذ جيدون ـــ ورقته صاح به أحد المسلجين فى صوت منهك .

مؤيد للدستور أو معارض له .. ضع علامتك .. أذهب وضع ورقتك ..

وقرأ مسجل آخر « جيدون جاكسون » فقلب الرجال حول المنضـــدة أوراق دفترهم الكبيرة وقال أحدهم .

« وقع هنا . أو ابصم »

فتناول جيدون القلم وكتب « جيدون جاكسون » فى صعوبة ظاهرة وقد ارتعشت أصابعه من الخوف ، ولكنه حمد الله على أنه قد تعلم كيف يكتب اسمه ولم يهن نفسة بأن يبصم فى مكان الاسم . ثم تناول الورقة وحاول أن يقرأ ما فيها قبل أن يضع علامته . لقد كان يعتقد أنه يعرف قليلا من القراءة ولكن كلمة (جمعية تأسيسية) كانت كأنها من اللغات الخرافية ولكنه وضع علامة حيث وجد كلمه (مؤيد) فانه يستطيع أن يفهم هذه الكلمة على الاقل ولكن خجله من هذا الموقف كان شيئا لن ينساه إلى أجل بعيد .

وهو يقول لسامعيه الآن

« كنا كالأطفال .. جهلاء سذج .. وعلى بيتر أن يدعو الله الآن أن نكون قد سلكنا الطريق الصحيح . »

وارتفعت بعض الأصوات فى هدوء « آمين »

وتابع جيدون حديثه : « تحدث إلينا أحد الجنود . ساقنـا كما يسوق الرجل قطيعا من الأغنام . لقد كان هناك أكثر من خمسمائة رجل منـــا جهلة لا يعرفون أو يدركون شيئا . وقال الجندى « اختاروا مندوبا » ووزع علينا أوراقا أخرى ثم تكلم رجل أسود . ومن بعده أسود آخر . ومن بعدهما رجل أبيض . لقد تحدث الأخ بيتر وقال « جيدون هو الرجل »

ولم يستطع جيدون أن يزيد على هذا شيئا .

وتكلم الاخ بيتر ليذكر كيف أن جيدون سيذهب إلى تشارلستون

ليشترك فى الجمعية التأسيسية :

وبكت راشيل .. وأخذ جيدون ينظر إلى الارض ويعبث بحشائشها بقدميه . وانقسم الجمع إلى جماعات صغيرة . فقد كان لكل قصته العجيبة .

* * *

وفى هذه الليلة ـ استعادت راشيل جيدون إلى جانبها من جديد واستلقى الاثنان على حشيتهما المحشوة بالقش وأخذا يستمعان إلى تنفس صغارهما . وإلى أصوات الضفادع والطيور الآتية من بعيد .

وتوسل إليها جيدون

ـ كفى بكاء

ـ أنا خائفة

ـ مم تخافين

ـ أن تذهب بعيدا . إلى تشارلستون

ـ وهنا كانت راشيل تتحدث عن مكان خرافى فى جهه ما من هذه الأرض .

ـ ولكنى سأعود . لماذا تبكى المرأة فى وقت سعادتها ؟أليس هذا هو أسعد وقت يحلم به رجل أسود . إننى خائف ؛ ولكن ليس على زوجتى وأولادى

ـ إذن .. مم تخاف

فأجاب جيدون فى كآبه

ـ إننى أسود جاهل إننى لا أعرف شيئا،لا اعرف كيف أقرأ ..ولا أعرف كيف أكتب غير اسمى ؟

ولكن الاخ بيتر ليس جاهلا .. لقد قال للناس انتخبوا جيدون نائبا عنكم . أتذكر ياجيدون يوم تركتنى وذهبت فى الجيش ؟ ليس هناك فرق الآن (وقربت شفتيها من أذنه وهمست) إن الرجل الاسود يزرع القطن ويفكر دائما فى زوجته التى يحبها .. !!

ونام جيدون . وقد امتلأ قلبه خوفاً ، وأملا .

* * *

كانت هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها خطاب إلى مزرعة كارويل منذ أن رحل عنها آخر نظارها . وكان ذلك بعد بضعة اسابيع منذ يوم الانتخاب ولذلك فإن أحداً لم يربط بين الحادثين . فى عصر ذلك اليوم حضرت إلى المكان عربة صغيرة يقودها هولشتين العجوز ـ ساعى البريد ـ الذى نزل منها فى بطء وزراية وكانت هذه طريقته فى معاملة العبيد المحررين وصاح من بعيد .

« هـ . . . . . ى . . . ! أيها السود الجبناء ! ! »

فجرى نحوه الناس . . رجالا ونساء وصبية وبناتاً . والتفوا حوله . . وبعد أن بصق هولشتين على الأرض وفرك راحتيه اخرج من جيبه مظروفا طويلا بنى اللون . . نظر إليه مليا ثم سأل :

« من منكم أيها اللصوص السود يدعى جيدون جاكسون ؟ »

فتقدم جيدون نحو هولشتين الذى كان يعرفه تماما ، فصعد فيه نظرته وسأله :

« جيدون جاكسون ؟ »

« نعم »

« وقع هنا »

« نعم ياسيدى »

فقدم إليه هولشتين قلما قصيرا وقال « هل تعرف الكتابة ؟ إذا لم تكن تعرف فما عليك إلا أن تضع بصمتك السوداء هنا »

فأجاب جيدون . . « استطيع الكتابة » نعم فقد كان يعرف كيف يكتب اسمه على كل حال . واستطاع جيدون فعلا أن يرسم اسمه ترقبة عين هولشتين الفاحصة ـ وقد ضيق عليه المجتمعون الخناق حتى لم يكن يستطيع التنفس إلا فى صعوبة ـ وكانت هذه هى المرة الأولى التى يزاول فيها تجربة

الكتابة هكذا عاليا أمام الناس الذين بدأوا يعلقون فى حماس على مقدرته وكفايته . واستدار العجوز نحو مركبته ، وألهب ظهر بغله ، وعاد إلى الطريق الذى حضر منه .

وقلب جيدون المظروف البنى فى بطء . . وكان قد كتب فى زاويته العليا إلى اليسار .

إذا لم يسلم فى ظرف عشرة أيام يرد إلى
الجزال ا. ر. س. كانبى
كولومبيا — ف. ع. ث. — ك — ج —

وقد استطاع جيدون أن يقرأ معظم هذه الكلمات . ولكنه لم يستطيع فهم معنى هذه الحروف الكثيرة . وقال الأخ بيتر ، وكان ينظر إليها من وراء كتف جيدون :

« جنرال كانبى هو القائد الجديد الذى عين للاشراف على هذه المسائل وهذا الحرفان ك. ج. يرمزان إلى كارولينا الجنوبية ، أما هذه الـ ف. ع. ث فربما كانت تعنى الفرقة العسكرية الثانية . . ويعلم الله ماذا يمكن أن تعنى هذه الحروف »

وكان قد كتب فى الزاوية المقابلة

«عملى رسمى »

العقوبة المقدرة على استعماله للتفادى دفع قيمة أوراق البريد هى ١٠٠،٠٠ دولار » ولم يستطع الأخ بيتر أو أى إنسان آخر ممن تكدسو حول جيدون أن يفهموا أى معنى لهذه العبارة . أما فى وسط المظروف فقد كتب .

حضرة جيدون جاكسون
مزرعة كارويل
كارويل ، ك. ج.

وقد قرأ الأخ بيتر اسم جيدون فى صوت مرتفع ولكنه وقف عند كلمة.

« حضرة » . إنه لم يسمع عن هذه الكلمة من قبل ، ولم يكن يدرك معناها ولا طريقة النطق بها . وقد حاول أن يعرف كيف تنطق هذه الكلمة وأخذ يحرك شفتيه فى صمت . وحاول هانيبال واشنطن الذى كان يعرف قراءه بعض الكلمات ، أن ينطق بهذه الكلمة . كما حاول ذلك ماريون جفرسون الذى تعلم كيف يقرأ بعض الكلمات عندما كان فى جيش الاتحاد ـ وكان هؤلاء كل المتعلمين وسط هذا الجمع — وقد قنعوا فى النهاية بالنظر إلى الخطاب دون أن ينطق واحد منهم بحرف . وأخيرا قال جيدون :

« أيها الأخ بيتر ، كيف تنطق بهذه الكلمة ؟ »

فهز الأخ بيتر رأسه ، وتطوع هانيبال واشنطن يقول ، « ربما تعنى سيد أو كولونيل أو شيئا من هذا »

وساد الصمت بين الجميع ، وأخيرا صاح الأخ بيتر : « افتح هـذا المظروف ياجيدون » وفى بطء شديد فتح جيدون المظروف ـ كان مليئا بالأوراق ، وقد لفها كلها خطاب موجه إلى جيدون بنفس الألفاظ التى كتبت على المظروف وقد جاء فيه :

نحيطكم علما بأنكم قد انتخبتم نائبا عن دائرة كارويل ـ سنكرتون بمقاطعة كارولينا الجنوبية ، فى الجمعية التأسيسية للمقاطعة التى ستجتمع فى تشارلستون يوم ١٤ يناير سنة ١٨٦٨ . وطى هذا التعليمات الخاصة بكم وأوراق الاعتماد . وقد اخطر المأجور ألن جيمس فى تشارلستون بانتخابكم وسيتسلم أوراق اعتمادكم . وإن حكومة الولايات المتحدة لتثق فى أنكم ستقومون بواجبكم فى شرف واخلاص ويطلب منكم كونجرس الولايات المتحدة أن تقوموا فى اخلاص وصدق بدوركم فى تعمير مقاطعة كارولينا الجنوبية »

التوقيع
هنرال ا. ر. س. كابى
ف. ع. ث ـ و. م.

هذا هو نص ماجاء فى الخطاب ، ومع ذلك فقد انقضت ساعات طوال دون أن يتمكن أحد من إدراك - ولو جزء يسير من معناه . وهكذا - وأهم من كل شىء آخر - أصبح انتخاب جيدون - من وجهة نظره هو - صورة كاريكاتورية هازلة لكل ما اكتسبوه من حرية جديدة عذبة . فهذا الجهل الاسود - الاسود أصبح يطغى على كل شىء - أشد سوادا من أجسامهم ، ومن الليل نفسه، لقد كانت خدعة كبيرة ، كتلك الاحلام التى تعاوده كل مساء من أمسيات هذه الايام الحرة، ويحس أثناءها بلدغات السياط على كتفيه ، وبأنه يعمل أثناءها فى حقول القطن الحارة . أحلام بدت كأنها حقيقة إلى حد أنه كان يفزع من نومه ويفتح الباب بنفسه ليرى بعينيه أن الحقول لم تعد مزروعة قطنا ، والآن ، أصبحت يقظته كبذة الاحلام ، وتمنى ان يهرب بعيدا . ويختفى .

واخذ الاخ بيتر وهانيبال واشنطن يجاهدان فى حل رموز الخطاب وفقد المجتمعون حماستهم وغربت الشمس فذهبوا إلى كوخ جيدون حيث جلسوا ومدوا الاوراق فى ايديهم على ضوء اللهب وقال هانيبال واشنطن .

- نستطيع ان نذهب إلى المدينة و نطلب من احد الجنود ان يشرح لنا ما فيه

فزأر جيدون فى قوة ووحشية « لا » فنظر اليه الجميع فى استغراب ودهشة ولا يذكر ماركوس أو جيف انهما رأيا والدهما من قبل في مثل هذه الحالة . وقد ظلا جالسين فى صمت - ولكن هذا كان بالنسبة لجيف بداية شىء ما فقد رأى ثلاثة رجال أقوياء ، ثلاثة رجال محل تقدير الناس ، حازمون يعرفون الله ، يعرفون أسرار الارض والزراعة وكيف تذبح البقرة أو الشاه ، والشىء الكثير غير هذا - ومع ذلك فانهم وقفوا جامدين مدحورين أمام قطعة من الورق . إن القوة هى فى هذه القطعة من الورق. لقد اصبح جيف الآن يدرك قوة الكلمة المطبوعة وهدوءها وحزمها لقد كان يعلم أنه سيتعلم القراءة يوما ما ومنذ ذلك الحين بدأ

يحس بأنه أعلى من جيدون .

وقد استطاع الرجال الثلاثة أن يفهموا فى النهاية مضمون الخطاب بشكل عام وسأل جيدون عن تاريخ اليوم .وهبت ريح باردة وتخللت فجوات الكوخ . هل يمكن ان يكون هذا اليوم نفسه هو ١٤ يناير ؟ ولكن الاخ بيتر تذكر ختم البريد على المظروف .

ـ مكتوب هنا أنه ٢ يناير

وتنهد هانيبال واشنطن فى عمق وقال«إن السير من هنا إلى تشارلسون يستغرق وقتا طويلا » ونظر جيدون إلى ملابسه فى زراية وقال « لا يمكننى أن أذهب هكذا » واخذ يتأمل بنطلونه القطنى الممزق وقميصه العسكرى الازرق القديم وحذاء الجيش العتيق .

ووافقه الاخ بيتر قائلا « إن هذا لايليق . فخذ جاكتى السوداء . إن بها قطعا كبيرا ولكن راشيل تستطيع إصلاحه . ربما تبدو صغيرة بالنسبة لحجمك ياجيدون ولكنها تصلح على بأى حال .

« ان لدى فرديناند بنطلونا جميلا »

« ولدى تروبر قبعة عالية قديمة يحتفظ بها فى كوخه إنها قبعة جميلة صحيح ان بها كسرا صغيرا .. ولكنها قبعة جميلة على كل حال »

وصاحت راشيل « حبيبى جيدون ، استطيع ان اغسل لك قميصك واصلحه جيدا »

وقال هانيبال واشنطن « خذ هذه الساعة القديمة ياجيدون لقد اعطاها لى احد الجنود ايام كنت فى الجيش » لقد كانت هذه الساعة أعظم مايمتلكه . وأحس جيدون بنوع غريب من الدفء يغمر كيانه لهذا الحب الذى يغمره به الناس وقال هانيبال واشنطن « خذها ياجيدون ـ انها لاتسير ولا تضبط الوقت ولكنها ساعة جميلة لكى تضعها فى جيبك »

قال الاخ بيتر فى حزم «يجب أن تأخذ منديلا . ليس منديلا للعرق بل لكى تعلقه فى صدرك كما يفعل البيض . لدى قطعة من القماش الاحمر

والابيض .. تستطيع راشيل أن تفصل منها منديلا »
وهكذا بدأ جيدون سيره فى الطريق الطويل الى تشارلستون .
وهكذا انقضى عليه الان يومان منذ غادر كارويل فى ذلك الصباح الباكر وها هو يفصله عنها الان بضعة أميال . وهو مازال سائرا فى طريقه الطويل المليء بالتراب وعلى رأسه قبعته العالية وقد تهدلت أطرافها ، يغنى فى صمته العريض نشيد السير القديم الذى تعلمه فى فرقته .
ـ ليست هناك حشائش تحت قدمى على طريق الحرية
ـ أيها ذا العجوز ، جون براون ، ياجدى إننا قادمون ..اننا قادمون على طريق الحرية
وكانت قد بدأت مناقشة قصيرة قبل أن يبدأ جيدون المسير ، حول ما اذا كان من الأصح أن يحمل بندقيته معه . ولكن بالرغم من كل الاخطار فقد وافق على ماقاله الاخ بيتر من أنه من الخطأ التام أن يذهب الانسان ليضع الدستور وفى يده بندقيته .
وقال الأخ بيتر « أذهب ، وفى قلبك الحب والسلام . وفى يديك أيضا » وعلى أى حال فان فى جيبه أوراق اعتماده من حكومة الولايات المتحدة من يجرؤ على المساس به ؟
واستمر جيدون فى سيره حتى ارتفعت الشمس عليه فوق رأسه . فتوقف عند أحد جانبي الطريق وأوقد نارا من بعض الاعشاب الجافة وأكل بعض ماحمله من الخبز واللحم ثم تمدد على الارض واستراح حوالى حوالى نصف الساعة وشعر بأن الجو أصبح أكثر دفئا من قبل . وبدأت الطيور تغنى فى مرح . وأدرك من صوت خرير ماء قريب انه يستطيع الان أن يطفىء ظمأه . لقد كان الرجل سعيدا .
وعندما أقبل الليل أخذ جيدون يبحث عن مكان يأويه . انه يستطيع أن يوقد نارا وينام الى جانبها على كومة من القش . ولكن جيدون أحس بأنها ستكون ليلة ضائعة تلك التى لا يستمع فيها الى صوت آدمى أو الى

قليل من الضحك . أنه لم يخلن الوحدة وكان مرهقا من سيره طوال اليوم وقد قطع الان مسافة ربما تبلغ خمسة وعشرين ميلا وربما ثلاثين .
لذلك فانه ما ان رأى جيدون كوخا يتصاعد من مدخنته دخان أزرق ويلعب أمامه ثلاثة أطفال فى لون الشيكولاته ـ حتى أحس بنوع من السكينة . وعندما اقترب من الباب جاء صاحب المنزل لمقابلته ، وكان رجلا أسود فيما بين الخامسة والستين أو السبعين من عمره ولكن قوى البنية صحيح الجسم على شفتيه ابتسامة .

ـ عمت مساء .

وأجابه جيدون «ومساؤك أنت أيضا» وأخذ يعجب كيف أن الاطفال جميعهم لايختلفون أبدا . فهم جميعا خجولون تهتز قلوبهم عجبا ودهشته لمرأى أى غريب .

وسأله العجوز «هل من خدمة أستطيع أن أوديها لك»

«ان اسمى ياسيدى جيدون جاكسون وأنا آت من مزرعة كارويل وفى طريقى الى تشارلستون وسأكون شاكرا جدا لو منحتنى ركنا من كوخك أقضى الليل فيه . لاتظن أنى أسود آبق استجدى قطعة من الخبز فهذا طعامى تحت ابطى . وهذه أوراقى الحكومية فى جيبى وكان العجوز مازال على ابتسامته . فسكت جيدون وحاول أن يبتلع ريقه ونسى كل ما كان يريد أن يقوله من اشتراكه فى الجمعية التأسيسية فى تشارلستون . وقال العجوز «كل غريب له مكان إلى جانب نارى وله نصيب فى خبزى . إننا لا نستطيع أن نوفر لك فرشا ولكن نستطيع أى نمد لك ملاءة إلى جانب المدفأة ـ إذا كان ذلك يلائمك . . وأنا لا أطلب من أن رجل اثباتا لشخصيته ياسيدى . . إن اسمى جيمس إللنبى»

فاجاب جيدون وقد أراحته ابتسامة الرجل . «أشكرك كثيرا يامستر إللنبى»

وقاده الرجل إلى داخل منزله الذى بدأ عليه أنه كان دائما منزل رجل

حر فقد كانت له نوافذ وأبواب ـ الأمر الذى لم يوجد قط فى أى كوخ يسكنه عبد . وكانت إلى جانب النار فتاة تثبت نظرها فى شيء بعيد ـ نهضت بمجرد دخولها فبدت طويلة القامة معتدلة السيقسان سمراء البشرة على جانب غريب من الجمال ترفع رأسها كما لو كانت تحاول موازنة شيء تحمله فوقه. وكانت عيناها واسعتين وبهما بريق شديد . . وقد أدرك جيدون هذا بالرغم مما يحيط به من ظلام .. ولكن كان هناك شيء غريب فى عينيها فإنها لم تنظر إليه قط . واتجه إللنى نحوها وأمسك بيدها قائلا :

« ابنتى . . إن عندنا ضيف هذا المساء . اسمه جيدون جاكسون وهو فى طريقه إلى تشارلستون وقد طلبت منه أن يقضى الليل عندنا . إنه رجل طيب على ما اعتقد . »

وقد كانت الطريقة التى تحدث بها العجوز وتلك النظرة الساهمة التى ركزتها الفتاه إلى ماوراه ـ سببا فى أن يدرك جيدون ما استغلق عليه .. لقد انزعج جيدون عندما أدرك أن الفتاة عمياء . . عمياء . . . وسرعان ما أعاد إليه اطمئنانه مشاهدته للأطفال يتعلقون بثوبها وتلك الرائحة الذكية التى تملأ المكان ، وما شاهده من نظافة الكوخ بالرغم مما هو فيه من بؤس ظاهر . ربما كانت هذه الفتاة ابنة ذلك العجوز ولكنها قطعا ليس أما لهؤلاء الأطفال فقد كانت أصغر كثيرا من هذا . ولكنه لم يستطع أن يستوضح الآن شيئا من هذا . . وقالت الفتاة « أهلا بك ياسيدى » وسرعان ماعادت إلى موقدها . وجلس جيدون على كرسى من الخيزران وأخذ إللنى يعد المائدة ويرص عليها أطباقا صغيرة وعدداً من الملاعق . وهبط الليل تماما واستطاع جيدون أن يعرف طريقه إلى الأطفال . . وسرعان ماكان أحدهم بين ذراعيه بينما استند الآخران إلى ركبتيه .

وقال العجوز « إنهم يحبون الغناء »

فبدأ جيدون يغنى « أخى الأرنب الصغير كان يعيش فى الغابة القديمة سياء غطاؤة .. فهو لا يحب الجحور .

* * * *

انتهى جيدون من رواية قصته ؟ الانتخابات .. واختيـــاره نائباً .. وتوغل الليل وكادت النيران تصبح رمادا .. وكانت الفتاة « إلن جونى» قد تسلقت الدرج إلى فراشها بالقرب من سقف المنزل . ونام أحد الأطفال معها أما الآخران « هام » و « جانيت » فقد اقتسما فراشا صغيرا واحدا .. وكانا الآن فى نوم عميـق . وجلس العجـــوز بالقرب من النار . . إلى جوار جيدون .

وقال العجوز « وهكذا إذن أنت فى طريقك إلى تشارلستون. إن الفجر يبزغ بعد مثل هذا الظلام الكثيف . كم احسدك ياجيـــدون جاكسون يرحمنى الله .. أحسدك . ولـكن ماحدث هو الخـير ـ فهو للشباب الأقوياء المتطلعين ـ للرجال من امثـالك »

فقال جيدون « بل لنا جميعا »

« نعم ؟ ـ كم تعتقـــد سنى ياجيدون ؟ »

« ربما كان خمسة وستين »

« سبعة وسبعون ياجيدون . لقد اشتركت فى الحرب ضد البريطـانيين عام ١٨١٢ نعم .. لقد سمح لنا بأن نقاتل فى ذلك الحين ـ من أجـل حرية هذه البلاد . لقد ظنوا أن نظام العبيد سيحفر قبره بيديه . ولـكن كان ذلك قبل أن تظهر زراعة القطن . . لقد علمونى فى ذلك الحـين وجعلوا منى معلما . ولم يدركوا أن التعليم كالمرض ، وأن الرجل إذا تعلم فإنه لن يصلح لـكى يكون عبدا . وأنه سينقل عدوى الحرية إلى الآخرين . »

فقال جيدون « إن قلبى يتمزق من أجل قليل من العلم »

« العلم والحرية ـ صبرا ياجيـدون . انهما يسيران جنبا إلى جنب . ألم أعلم أنا ذلك ؟ عندما انتهت هذه الحرب ضد بريطانيا اكتشف السيد أننى اعلم بقية العبيد القراءة والـكتابة . كيف أمكننى ذلك ؟ لقـد أراد أن

يعرف السر . ولكن كيف كان يمكننى أن أفعل غير ذلك ؟ ولقد باعنى السيد .. كسلعة ياجيدون . ولكن حيثما كنت فقد لازمنى ذلك الجوع نحو العلم . فباعنى السيد الجديد بعد أن ألهبنى بالسوط وهدد حياتى . ولكن كيف يمكن القضاء على مرضى ؟ لقد قرأت فولتير وبين وجيفرسون وشيكسبير .. إنك لم تسمع اسمه فى حياتك ياجيدون ولم تستمع إلى صوته الذهبى ــ ولكنك سوف تتمكن من ذلك . كيف يمكننى أن اسكت ؟ »

وهز جيدون رأسه فى أسى عميق .

« لقد تزوجت ثلاث مرات ياجيدون ، وكنت أحب زوجاتى جميعا ــ وفى كل مرة كنت أباع فيهـا ، كنت أترك زوجتى . . وكان لى أولاد أيضا ، ولكننى لا أعرف الآن أين يقيم أى واحد منهم ياجيدون . . هربت أربع مرات ــ وفى كل مرة كانوا يعثرون على ويجلدوننى بالسياط ولكنهم كانوا دائما يتركوننى حيا ، فأى حيوان حى خير من ميت . إننى ياجيدون لا أتكلم فى مثل هذه الأشياء عادة ولكننى أذكرها لك لأنه من المهم جدا أن تذكر ماضينا ، وما عاناه شعبنا من عذابات . إن فيك ياجيدون رقة وقوة وفيك نار أيضا كما أرى . ولسوف تكون زعيما ولكنك لن تستأهل شيئا إذا نسيت .. والآن . . لقد كنت تعجب من أمر هذه الفتاة العمياء وهؤلاء الأطفال الثلاثة . سأذكر لك »

فقال جيدون « لاتذكر شيئا إلا إذا كنت راغبا حقا فى ذلك »

« ولهذا فاننى أذكره لك ياجيدون ــ لأننى أريد ذلك . ان هؤلاء الأطفال الثلاثة لقطاء . إن أرضنا الفقيرة هذه فى الجنوب مليئة باليتامى واللقطاء والصبية المشردين . وكنت عبدا فى ألباما عندما بدأت الحرب . وعندما أتى التحرير يممت وجهى شطر الشمال والشرق لكى أعيش فى بلاد الشماليين ــ فأنا أحب هذا الجنوب ــ ولكننى لا أحب المقاطعات الجنوبية جدا . انها ترهقنى كثيرا . فكرت فى أنه من المحتمل أن اجد لى مكانا فى

كارولينا أو فى فرجينيا حيث يحتاجون إلى معلم . وفى طريق عثرت على هؤلاء الأطفال . كيف ؟ هذا ماحدث ياجيدون ـ وما يمكن أن يحدث لك . . . وعثرت على الفتاة أيضا . إن إلن فى السادس عشر ـ كان أبوها رجلا حرا أسودا يعيش فى أتلنتا . وكان طبيبا . وهذه قصة أخرى . لقد مات . . يرحمه الله . وبمجرد أن مات شيرفان توالت أحداث رهيبة . إننى لا ألوم أحدا فقد عمـد بعض الجنود ـ وفى كل جيش هناك الأشرار وهنـاك الأخيار ـ إلى قتل والد الفتاة على مرأى منها . . طعنوه بالسونكى وأخرجوا عينيه . . . ويعلم الله كم ساعد الشماليين . إننى أذكر لك هذا ياجيدون لا لكى تحقد بل لكى تفهم . انك ذاهب إلى تشارلستون لتصنع دستورا . . عالما جديدا . . حياة جديدة . فعليك أن تفهم كيف يقدم أناس بسطاء على ارتكاب أعمال شيطانية . . ذلك أنهم لا يعرفون طريقا آخر . وبعد أن قتلوا والدها اغتصبوها . وقد عميت الفتاة بعد ذلك . اننى لا افهم مثل هذه الأشياء . . ولا أعرف ان كانت الصدمة تسبب العمى أم ان الفتاة كانت مريضة فى عينيها . ولكننى عندما عثرت عليها كانت فقدت إدراكها حتى أنها لم تكن تعرف من هى . كانت تعيش فى الغابة كحيوان برى . ولكنها لسبب ما وثقت بى . . وقد اضفتها الى مجموعتى »

وتوقف الرجل عن الكلام ، وكان جيدون يحملق فى بقايا النار ويقبض راحتيه تارة ويبسطهما تارة أخرى .

وقال جيدون وقد وضح فى صوته أثر القلق والهياج . . « استمع الى الآن . . انك رجل عالم . ربما كنت كهلا . . ولكنك مازلت صحيحـا . . . وربما عشت عشر سنوات أخرى »

ـــ ما ترمى وراء هذا ياجيدون ؟

ـــ لدى فكرة . . فها أنا هنا ، رجل أسود أصبح حرا يدمى قدميه فى طريقه الى تشارلستون فخورا بأن اصبح نائبا فى الجمعية التأسيسية . ولكننى

لا استطيع القراءة ولا الكتابة . . يغمرنى الجهل . وفى هــذا الجنوب.
أربعة ملايين من السود يتوقون إلى الحصول على شىء من المعرفة. لقد حصلوا
على الحرية . . ولكن كيف يمكن أن يحتفظ بها رجل يغرق فى الجهل ! انك
تعلم ثلاثة من الصغار . . هذا حسن . ولكن هناك فى كارويل أناس مثلى
تماما - يتحسسون طريقهم شأنهم شأن كل السود فى هــذه الأرض ، لا
يعرفون مالهم وما ليس لهم . لا يعرفون اذا كانت الأرض اصبحت ملكا
لهم . . أم أن لهم سياط العبيد . وكيف يمكنهم أن يدركوا ذلك وليس فى
ارضهم من يعرف القراءة أو الكتابة !

وتوقف جيدون قليــلا . . وبلع ريقه . . ثم أخذ يحدد الفــاظه
بإشارات أصابعه « عليك أن تذهب الى هناك - وخذ معك صغارك .
وقل لهم ان جيدون قد أرسلك . تحدث الى الأخ بيتر . انه راعينا . قل
لهم أنك ستعلمهم . امنحهم المعرفة . وسيرحبون بك كثيرا »

ولكن الرجل عارض . . فأخذ جيدون يتابعه فى غير هــوادة حتى
خبت النار . . فهز الرجل رأسه . . نعم سيذهب الى هناك .

وفى الصباح كان جيدون فى الطريق مرة أخرى . . ثم نام ليلة ومن
فوقه النجوم . . ومن تحته مجموعة من الأخشاب تفصله عن الارض الرطبة
ولم يكن هذا مريحا . ولكن قلبه كان ســعيدا وقد ملك عليه رأسه
التفكير فيما وراء رحلته .

وفى اليوم التالى سار جيدون فى أرض منخفضة .. بالقرب من ساحل
البحر، وفى اليوم الرابع استطاع أن يرى قمم المبــانى فى تشارلستون
أمام ناظريه .

* * * *

لم يستطع جيــدون جاكسون أن يعلل حالة الفزع التى استولت عليه
عندما دخل مدينة تشارلستون . كان يشعر برهبة عميقة من هذا الشىء المخيف

المجهول - الرجل الأبيض . وتدافعت اليه ذكريات طفولته فى المنزل الكبير
أخذ يستمع إلى تلك العبارة التى كان يسمعها منذ ثلاثين سنة «هنا ياولد»
وكان عديد من النساء والرجال يملئون شرفة القصر الكبير .. الرجال فى أحذية جميلة وحلل رائعة والنساء فى أردية لايذكر إلا أنها كانت جميلة جداً وكانت هناك سيدة لا يعرف من هى - اتسخ حذاؤها بالوحل . وصاح به أحد الرجال « تعال هنا يا ولد » وأخذ ينظف حذاء السيدة مما علق به من وحل فألقى اليه الرجل بقطعة نقود فضية . وانه ليذكر كيف تدحرجت هــــذه القطعة الفضية فى الوحل وكيف جرى هو وراءها فى نهم وشغف وكيف فركها بين راحتيه ، ثم تحول الى وجوههم متسائلا .. فإذا الجميع يصخبون فى ضحك وحشى . كان حيوانا صغيرا أسود . انه كان يدرك ذلك جيداً .. وبالرغم من أنه كان طفلا فى السادسة من عمره إلا أن احساسه بالرعب كان عميقا .. كما كان احساسه بالوحدة المحطمة . حتى الأمــل الذى يجب أن يكون جزءاً من حياة كل شىء - قد حرم منه . ومنذ ذلك الحــين أصبح الرجل الأبيض بالنسبة له بابا مغلقاً ، وبالرغم من أنه اقترب كثيرا من هذا الباب الا أنه لم يتمكن يوما من اجتيازه .

والآن .. هـا هو قد وضع يده على هذا البـاب المغلق . انه لم يدخل تشارلستون هذه المرة كما دخلها من قبل .. يسير جنبا الى جنب مع غيره من الناس يحمل بندقيته على كتفه .. ولـكنه دخلها وحيدا .. خائفا .

وسار جيدون فى شوارع المدينة الكبيرة . لامال ولا طعام . ولا حتى الشجاعة الـكافية لتقديم نفسه الى الضابط المختص بشئون الجمعية التأسيسية كان جائعا مرهقا وقد أدرك الآن لأول مرة حقـارة ثيابه وضعتها . حتى ذلك المنديل المتدلى من جيب سترته لم يبعث فى نفسه شيئا من الارتياح .

وعندما وصل فى سيره الى شـارع الخليج الشرقى وجـــد ساحة مليئة بأكياس القطن .. ولاحظ فى مكان فيها أن ثلاث بالات منها يكونان شيئا يشبه الـكهف .. دخله جيدون وألقى بنفسه فيه . لم يستطيع حتى أن يهمهم

باحدى أغنياته القديمة ليرفع من حالته المعنوية بل ظل هكذا مستيقظا تعسا لعدة ساعات قبل أن يأخذه النعاس .

وفى الصباح الباكر أشتبك جيدون مع جماعة من الحمالين السود . كان يسير على رصيف الميناء حيث جلسوا فى انتظار تفريغ إحدى السفن فأمسك أحدهم بسترته .

ـ ياولد .. ما هذا .. هل أنت من رجال الدين ؟

ـ إنه قسيس .. ما فى ذاك شك

ـ أنظر إلى هذه السترة . لابد أنه مرغها فى القطن !

ومع ذلك فان هذه التعليقات والاشارات المتهكمة لم يكن لها أى تأثير على جيدون . فقد وقف هناك . صامتا حزينا يراقبهم وهم يلتهمون طعام افطارهم المكون من خبز الذرة والجبن المنزلى والبصل والحق أن يأسه كان واضحا وعميقا إلى حد أنهم توقفوا عن تهكمهم وقال له أحدهم .

ـ ألك فى قطعة من الخبز أيها القسيس ؟

فهز جيدون رأسه .

ـ هل تشتغل ؟

فهز جيدون رأسه مرة أخرى .

ـ إن رئيسنا الابيض يستخدم العامل بنصف دولار فى اليوم

وهز جيدون رأسه .. إن الرجل إما أن يعمل أو يموت جوعا . . إنه لا يصلح لأعمال كثيرة ولكن له ذراعين قويين وظهرا كظهر البغل يستطيع أن يحمل عليه بالة كاملة من القطن ومهما كان الامر فان نصف دولار يوميا قدر لايستهان به . لم لا ؟

وقد استطاع طوال ذلك اليوم أن ينسى .. فقد كان العرق يسيل مدرارا فوق وجهه وعضلاته تتقلص وتنبسط تدفع وتجذب ، حتى صاح بعض السود فى احترام واعجاب ..

ـ إنه رجل قوى من جنوب النهر ! لقد خلق ليكون حمالا !

وكان جيدون قد خلع سترته ووضعها جانبا ؛ ولكنه لم يفارق أوراقه الحكومية . فقد وضعها فى جيب سرواله . وكلما أحس بها و بتثنيها فى جيبه أحس بنوع من الاطمئنان والهدوء .

فكر جيدون طويلا فى تلك الليلة فى خوفه من ذهابه إلى الماجور ألن جيمس لتقديم أوراق اعتماده . ولقد ظل يذكر فيما بعد كيف حدث التغيير فى نفسه وهل هو يرجع الى هذا السبب أو ذاك . وهل كان ذلك يرجع إلى أنه أشترى احدى الجرائد بخمسه بنسات وحملها فى فخار تحت إبطه ، أم أنه ذلك المنزل الذى وجد فيه مأوى و يملكه مستر جا كوب كارتر ، أم أنه يرجع الى شيء أو آخر مما حدث له فى تلك الامسية .

كان جا كوب كارتر اسكافيا — كان أسود ا يتمتع بحريته قبل الحرب وبعدها دؤوبا محترما استطاع أن يبقى بعض ماله يشترى به حريته . وكان له منزل صغير على حافة مدينة تشارلستون مكون من أربع غرف . وضع عليه لافته كتب عليها « لأعضاء الجمعية التأسيسية » وكان الرجل الذى باع جيدون الجريدة قد أخبره بهذا المكان وكان يقول لجيدون « ياسيدى » ربما لأنه اشترى منه الجريدة — ومع ذلك فقد كان لهذا أثره فى رفع حالته المعنويه .

وفى تلك الليلة — وعلى ضوء المصباح الخافت أخذ جيدون يناضل سطور جريدته . . كان قد رأى الجرائد من قبل ؛ ولكن كانت هذه هى المرة الاولى التى رأى نفسه فيها يحاول قراءة احداها وأخذ يقرأ ببطء شديد واضعا أصبعه تحت كل كلمة .. ولكنه لم يستطع فهم شيء . . فقد كانت هناك كلمات كثيرة لم يدرك معناها . ومع ذلك فقد حاول أن يفهم افتتاحية الجريدة وكانت تتهكم بالجمعية التأسيسية وتشبهها بسرك أو حديقة للحيوان جمعت عددا كبيرا من القردة .

وعندما وجد جيدون أنه لايستطيع إبقاء عينيه مفتوحتين استلقى على فراشه .. كان مريحا دافئا .. وأخذ يحلم بأن ينام هو وراشيل دائما فى مثل

هذا الفراش .

وغادر جيدون المنزل فى الصباح عليه مسحة من الاناقـــة .. بسترته السوداء التى عنيت مدام كارتر بتنظيفها وكيها .. وبذلك القميص الابيض الذى ألح كارتر على جيدون فى ارتدائه ـ كان ضيقا عليه قليلا ولـكنه كان لابأس به على كل حال ـ وبربطة عنق سوداء . أخذها من كارتر أيضا .

كان الماجور جيمس رجلا عجوزا ،. ضيق الصدر ..ولم يكن ذلك لأن الجمعية التأسيسية التى كلف بالاشراف على نظامها ـ لا أثر فيها للنظام . . بل لأن مدينة تشارلستون أيضا كانت كبرميل من البارود بدأ فتيلة فى الاشتعال فلم يكن يخدعه ذلك الهدوء الذى خيم على المدينة ، فقد غادرها معظم ثراتها وبقى معظم أهلها فى بيوتهم لايبرحونها مـــدة أسبوع كامل ولم يكن يدرى مايدور وراء هذه الابواب المغلقة .

وعندما بدأ أعضاء الجمعية التأسيسية فى التجمع حوله ليقدموا له أوراقهم انهار كل أمل له فى الخروج من هذا المأزق .. أى جماعة من الناس هـــذه جهلة .. فقراء .. قذرين .. ! ! وأى سرك يمـــكن أن يجمع كل هؤلاء .

وفى يأس عظيم .. وقع الماجور جيمس أوراق جيدون التى تعطيـــه الحق فى الجلوس فى الجمعية التأسيسية لمقاطعة كارولينا الجنوبية .

وحينما كان جيدون يهم بمغادرة مكتب تحقيق الشخصية العسكرى . إذ استوقفه رجل ملون أنيق الملبس قدم له نفسه باسم فرانسيس كاردوزو وسأله:

ـ هل أنت عضو فى الجمعية ؟

ـ آه ...

ـ أتسمح لى بالسير معك فى الطريق ؟

ـ لا أعرف أن هناك مانع ؟ .. ووقع جيدون فى شىء من الحـــيرة والارتباك من أمر هذا الرجل الغريب الأنيق .. وبدأ الرجلان طريقهما . وأخذ جيدون يختلس النظر بين لحظة وأخرى إلى زميله . وأخيراً سـأله كاردوزو .

ـ وما أسمك اذا سمحت لى بالسؤال ؟

ـ جيدون جاكسون

وذكر كاردوزو أنه هو أيضا عضو فى الجمعيه عن مدينة تشارلستون وسأله إن كان يرى أن يتعرف ببقية الأعضاء؟ وقال انهم سيجتمعون فى منزله فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم للتحدث فى المسائل المعروضة على الجمعية .

وذهب جيدون فى الموعد المحدد إلى منزل كاردوزو وقد تأبط جريدة جديدة . وعرف كيف يحنى رأسه عندما قدم الى مستر ناش ومستررايت ومستر ديلانى . وثلاثتهم من السود من سكان تشارلستون وفى منتصف أعمارهم وقد رفع كل منهم حاجبه نحو جيدون ، بلهجته الريفية الفظة وتعبيرات العبيد على لسانه . وقد تأثر جيدون كثيرا .. فهؤلاء رجال متعلمون أنيقوا الملبس فى أرديتهم السوداء . وقال مستر ناش :

ـ أعتقد يا مستر جاكسون انك تحمل تعليمات مامن ناخبيك ؟

وأضاف مستر ديلانى إننا فى حاجة إلى برنامج مكتوب

فهمهم جيدون .. اننى لا أعرف .. وقرر جيدون ألا يتكلم واكتفى بالإنصات . فسأله كاردوزو : ما رأيك فى حمل هذا الشيء .. الدستور ؟ ماذا ترى أن يكون عليه هذا الدستور الذى ستشترك فى وضعه ؟

ونظر جيدون فى وجوههم . وتأمل هذه الغرفة التى جاوزت كل ما كان يتصور من أناقة .. كيف تسنى لهذا الرجل الأسود أن يصل الى هذا المكان

وطأطأ جيدون رأسه « أظن أنكم تريدون أن تعرفوا جوابى على ذلك إنكم تتحدثون الى رجل لا يعرف القراءة أو الكتابة ، مجرد رجل أسود عجوز أتى إلى هنا على قدميه من حقول القطن ، هذا هو حالى . ماذا أريد من الدستور ؟ ربما لم يكن ذلك الذى تريدون ـ أننى أريد التعليم ، أريده للجميع .. البيض والسود . أريد حرية اكيدة كسياج من الحديد، لا أريد أحداً يدفعنى من طريقه كما حدث لى أثناء مجيئى اليكم . هذا هو ما أريد »

وخيم الصمت على الجميع . وأحس جيدون بالغضب والاستفزاز ... أحس بأنه قال شيئا سخيفا لا معنى له . وبعد قليلا نصرف الجميع ، وعندما نهض جيدون رجاه كاردوزو أن يمكث معه قليلا . فعاد جيدون للجلوس .

قال كاردوزو : أرجو أن تفهم المسألة على هذا النحو . قليل منا نحن السود من كان حراً . ولم يكن ارتباطنا ببقية السود قويا . هذه القلة الحرة منا يقابلها فى الناحية الأخرى أربعة ملايين من العبيد . ومع ذلك فتحت الكتب أمامنا واستطعنا أن نتعلم منها شيئا . صدقنى لقد كنا أكثر عبودية منكم . والآن يظهر هذا الموقف الغريب بكل تعقيداته . فإن حكومة الاتحاد ومن ورائها ذلك الجهاز العسكرى الضخم الذى ابتنته أيام الحرب الأهلية ـ تقول لأهل الجنوب من البيض والسود ، ابنوا لكم حياة جديدة ويثور كبار المزارعين ضد هذا الوضع ـ ولكنهم هم الجانب المهزوم فيمتنعون عن الانتخاب وتكون النتيجة كما حدث فى هذه المقاطعة أن السود وحدهم ـ عبيد الأمس ـ هم الذين يختارون وحدهم نوابهم فى الجمعية التأسيسية . هل تعلم يا جيدون أننا نحن السود نكون أغلبية الجمعية فمنا فيها ٨٦ صوتا من ١٢٤ ؟ وأكثر من ٥٠ من هؤلاء السود كانوا عبيداً ؟ ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء ؟

ـ ماذا يفعلون ؟ انه لم يعودوا بعد وحوشاً كما تصفهم الصحف . إن لهم زوجات وأبناء . ولهم الحب يعمر قلوبهم . وإن بهم جوعا للعلم ، وقد أعطوا أصواتهم لذلك . ولقد عرفوا العبودية ، فأعطوا أصواتهم للحرية .

فقال كاردوزو بعد فترة من التفكير : ان هذا ليشجعنى يا جيدون .. ولكن قل لى شيئا عن نفسك .

وقبل أن يغادر جيدون المنزل سلمه كاردوزو كتابين الأول فى «قواعد الهجاء» والثانى «استعمال اللغة الانجليزية» . وكان هذان الكتابان هما أول كتابين حقيقيين يراهما جيدون ، فأمسك بهما فى رفق بين راحتيه الضخمتين كما لو كان يخشى أن يتكسرا . وبعد أن التقط شيئا من ذاكرته سأله : هل لديك

كتاب شكسبير ؟

وتردد كاردوزو لحظة ، وبعدها ، ودون أن يبتسم ، ذهب الى رف صغير للكتب استخرج منه « عطيل » وسلمه الى جيدون .

فقال جيدون « شكراً لك »

وهز كاردوزو رأسه ، وبعد أن غادر جيدون المكان ، قال كاردوزو لزوجته « لو أنني ضحكت — لو أن هـذا حدث ! يا إلهي ، لقد كدت أضحك ! أي حيوانات نحن ! »

وقال كارتر لجيدون أنه يستطيع استعمال المصباح ، وفيما بعد ، في آخر الشهر ، عندما يكون النواب قد حصلوا على شي من أجورهم ، فعليه أن يدفع له ثمن الزيت . ورقد جيدون حتى منتصف الليل وأمامه كتاب الهجاء — يكتب الكلمات على هوامش جريدته ، وينطق بها في صوت عال ويحاول أن يعرف ما اذا كان نطقها غريبا . وكان من نتيجة هذه الهمهمة المتصلة أن ذهب كارتر إلى باب حجرته وسأله .

ـ هل تتألم ؟

فأجاب جيدون في شيء من الاعتذار « بل أتعلم »

كان كتاب الهجاء رائعا ، ولكنه لم يكن يعطي معاني الكلمات وعجب جيدون ، لو أن هناك كتابا يذكر ماذا تعني كل كلمة . . وانتقل إلى كتاب استعمال اللغة الانجليزية . . وكان كلما توغل في قراءته كلما زادت مخاوفه . . وأدرك أي مشقة يقتضيها التعليم . وانتقل إلى « عطيل » وفي نفسه خيط واه من الأمل . سرعان ما تقطع عن آخره . وأخيرا أسلم نفسه للنوم ، وقد بدأ رأسه يتصدع ، وزاد يأسه أكثر من أي وقت مضى .

وعقدت الجمعية التأسيسية أخيرا ـ بعد فترة طويلة من الانتظار كأنها لا تنتهي ، وأخذ جيدون جاكسون مقعدة بين النواب . ولقد خيل اليه في هذه اللحظة أن الزمن قد جمد . فقد عاش ست وثلاثين سنة بعد أن ولد فأرا صاخبا أسود . . قتل أمه ساعة الوضع . ومنذ عرف المشي أخـذ يباع

كالقطيع ينتقل من يد إلى يد بعد ان يجسه الشارى ويختلف على ثمنـــه ـ وها هو الآن يجلس مع هؤلاء الرجال الذين يصنعون عالما جديدا .. جامدا صامتا .. لا يتحرك . وكأن العالم قد أوشك على نهايته . وعقد جيـــدون ما بين ذراعيه وضم ركبتيه . وأخذ يستمع إلى كل نبضـة من نبضـات قلبه لايكاد يجرؤ على التنفس . وعلى كل حال فان التنفس لم يكن بالأمر الهـين فى هذه القاعة الغاصة بمن فيهـا . . وقد تراصت صفوفها فى مقابلة بعضهـا البعض وقد علا كل صف منها عن الذى أمامه . وظهرت فى صفوفها المتوالية وجوه سود و بيض . . ورجال بعضهم فى لبـاس القرى والبعض فى ثياب المدينة . . بعضهم فى ملابس عجيبة و بعضهم فى ملابس متواضعـة ، رجال يلبسون سترات سوداء قاتمة وآخرون يلبسون سترات الجيش القـــديمة . شـباب وكهول . رجال ولدوا عبيدا وآخرون ولدوا أحرارا رجال ساروا فى صفوف المتمردين وآخرون ساروا فى جيش الاتحاد . . . . لا لم يكن التنفس فى هذه القاعة سهلا على الاطلاق .

وكأن هذا لم يكن يكفى . فقد عمد أهالى تشارلستون أخيرا إلى مغادرة بيوتهم واندفعوا يحاولون رؤية هذا «السيرك» هذه « المجموعة من القردة » وكـانت الصحافة هناك أيضا ، ولم يقتصر الأمر على المندوبين المحليين بل كـان هناك عدد ضخم من الكتاب الساخرين وقد عقدوا العزم على أن يضعوا نهاية سريعة لهذه المهزلة المحتومة .

وبالرغم من كل هذا التوقع . . والانتظار .. وحدة الأعصاب ، فقد مرت الجلسة الأولى فى هدوء ووفقا للتقاليد العـادية . وتقرر عقد الجلسة التالية فى صباح الغد .

وأخذ جيدون يستمع إلى جماعة من النواب وقفوا فى الطريق يتناقشون فى حرارة . كانوا من الأناليم ، ضخام الاجسام ، لهم اكتاف تكشف عن سنين طويلة انقضت خلف المحاريث . وكان أحدهم ـ وهو عجوز ، اسود كالفحم ، حاد العينين ـ يقول :

ـــ التعليم هو ما حرمنا منه ـ من حصل عليه فى هذه المقاطعة ؟ ولـكن

السادة لا يهمهم من هذا الأمر شيئا . فبوسع أحدهم أن يستحضر معلما إلى بيته ويرسل أولاده إلى أوروبا . لماذا يريد هؤلاء الناس تمزيقنا .

وظهر وجه رجل طويل أبيض ، بارز العظام ؛ يتكلم فى لهجة أهل الجبل - شق طريقه وسط هذا الجمع وقال . « لأكثر من سبب أيها العم - واسمى أندرسون كلاى »

- كيف ذلك ! .

- ايها العم . . لماذا لا نفتحون أعينكم أيها السود ! إن هذا الشيء - المساواه - لا يمكن أن يمنع تدفق الماء مالم تسندوه بأكتافكم . . يقينا أنهم سيحاولون تمزيقكم وسيحاولون تمزيقى . فأنتم سود . . وأنا نفاية بيضاء . لقد انتخبنى فقراء البيض ، وانتخبكم السود ، وربما كان هناك جزء من السود بين ناخبي وربما كان هناك بعض من فقراء البيض بين ناخبيكم . . ولست من محبى السود ، ولكنى أحب ذلك النوع من التفكير الذى يؤدى إلى أربعة عندما يضيف اثنين إلى اثنين . وهذا النوع من التفكير يدلنى على الطريق الذى نتبعه إذا استطعنا أن نحتفظ بعقولنا . ولكنه لا يدلنى على أنهم سيمتنعون عن وصفنا بالحيوانات »

وسأل أحدهم « وماذا تريد أن تعمل أيها الرجل الأبيض ! »

« سأحتفظ برأسى . وأخرج من هذه الجمعية بالمدارس وبحق الانتخاب للجميع . وأنا أعرف ما سوف يقول أعدائى »

« ولكن ماذا عن الأرض ؟ وما خير المدارس والانتخاب إذا لم تكن لدينا وسيلة الزراعة » . .

وقال الرجل الابيض « الارض » وكأنه كان يجتر الكلمه « يا أخى . . طالبهم بالارض . وسوف يقذفون بك إلى الجحيم . إن الارض لن تأتى من هذا الدستور . وإذا كنا نريد الارض فعلينا أن نبذل الجهد والعرق لكى نشتريها »

وعندما أرسل جيدون خطابا الى زوجته بعد ذلك بعده أيام ـ خط فيه أول ما كتب فى حياته من كلمات وأحس بالعجب لوقع كل كلمة كتبها قال فيه :

« زوجتى العزيزة راشيل .

إننى أفكر فيك كل أيامى . وقد صنعت لك صورة فى نفسى . إننى أفكر دائما كم أنت جميلة . وكما أحسست عندما ذهبت مع الجيش إلى الحرب احس الآن .. حزنا لفراقك . لقد تعلمت الكتابة والقراءة من الكتب وأنا الآن نائب فى الجمعية التأسيسية لكى أضع قانونا صالحا . وأجرى كبير جدا . ثلاثة دولارات يوميا أوفر معظمها . وعندما أنام أراك أنت والاولاد . وفى كل ليلة أدعو الله أن يكون رحيما بكم . إننى أكتب على هذا النحو الجميل لأنى قد فتحت كتابا الى جانبى . ولكننى أتعلم . لقد تكلمت فى الجمعية لأول مرة حول أجورنا . كنت خائفا جدا . وهذه تسمى مناقشة . اعتنى بجيمس إللنبى اذا حضر . الله معك . سوف أكتب لك قريبا »

* * *

أصبحت أيام انعقاد الجمعية أسابيع . وأصبحت الاسابيع شهورا وفقد جيدون أحساسه بالخوف والوحشة اللذين لازماه عند دخوله الجمعية فى فترتها الاولى . وكما حدث له فى حياته من قبل فان ما كان شيئا غير عادى أصبح عاديا وما كان غريبا أصبح مألوفاً . ولم يكن ذلك التحول الذى تم فى نفسه على هذا النحو تحولا واعيا تماما .. فلم يحدث له أن توقف لحظة واحدة ليفكر فى نفسه ويدرك أنه أصبح رجلا آخر غير ذلك الرجل الذى عرفه من قبل لقد أكسبته مزاولة الشىء ، اعتياد ذلك الشىء .. وكان الاخ بيتر قد طلب اليه يوما أن يستمع الى الناس حيث أن الكلام هو من أهم عناصر الحكم على الرجل ـ ولقد ظل جيدون يستمع طوال الايام العديدة التى قضاها فى الجمعية . وقد تحدث بعض المرات ـ ولم يدهشه كثيرا إنه فى كل مرة كان يتحدث فيها كان الاعضاء يستمعون اليه فى مزيد من الاهتمام .

وأتت الانباء بثمارها . فقد زادت الكتب الثلاثة التى احتفظ بها في حجرته فى منزل كارتر حتى اصبحت اثنى عشر ثم قفزت الى ضعف هذا العدد وفى كل ليلة ، وبمجرد أن ينتهى من تناول عشائه كان يذهب إلى حجرته ويغلق بابها من الداخل ويفتح كتبه على المنضدة الصغيرة على ضوء المصباح الاصفر . ونادرا ما نقص عمله هذا عن ثلاث ساعات ، وقد وصل فى بعض الليالى الى خمس ساعات . بل انه كثيرا ما عمل الليل طوله .

لم تكن المعرفة تقف به عند حد ، وكثيرا ما أنتابته تلك الفكرة اليائسة وهو أنه مازال عند أول الطريق . لقد قضى أسبوعا كاملا فى قواعد الحساب وقضى ليلة كاملة يعد فيها صفحة واحدة - هى الخطاب الذى يلقيه فى الغد فى موضوع التعليم .. ولقد حدث ذلك فعلا ، ووقف جيدون جاكسون في قاعة الجمعية التأسيسية وألقى كلمته :

« لقد سمعت خلال هذه الايام القليلة الماضية بعض حضرات الزملاء النواب يناقشون فى جدوى التعليم المفروض بالقانون . وقد سمعت بعض السادة يقولون أنه من غير المعقول ومن غير الصواب أن نأمل فى فرض التعليم على الناس . انى لا أوافق على هذا . لقد كان من المحتمل أن يسير الناس عراة لو لم يكن هناك قانون يجبرهم على ارتداء الملابس . وكان لابد لهم أن يرتدوا هذه الملابس لأن القانون يلزمهم بهذا ، وقد اعتادوا هذا الوضع فى آخر الامر وانا اعتقد أنه بعد مضى خمس أو عشر سنوات سيعتاد الناس هذه الحقيقة - وهى ذهابهم الى المدرسة ، رضوا أم كرهوا . . انى أسألكم ، لماذا كان مالك العبيد يبيع العبد بمجرد ان يكتشف علمه بالقراءة والكتابة ؟ وانا أجيب على هذا بأن الجهلة وحدهم هم الذين يمكن أن يكونوا عبيدا . ان الديموقراطية والمساواة لا يمكن أن يفهمها رجال ونساء لاقدرة لهم على فهم مثل هذه الامور . ولا يمكن ان يكون الناس أحرارا مالم يفهموا معنى هذه الحرية »

لقد انفق جيدون ليلة بأكملها ليكتب هذه الكلمات . وعندما انتهى

منها انتابه شعور عميق بعدم كفايتها ، وبرداءة أسلوبها ، وبقصورها عن التعبير عما أراد أن يعبر عنه تماما .. وبالرغم من كل هذا أتى اليه كاردوزو بعد ذلك وسأله :

— أين كنت تختبىء ياجيدون ؟

— أختبىء ؟

— أعنى أنك كنت تختفى عقب كل اجتماع

فقال جيدون : كنت أستذكر

ـ كل ليلة ؟

ـ كل ليلة

فقال كاردزو فى كثير من التفكير « لاراحـــة .. ولا لعب .. وأنت لاتقابل أحدا ؟ ليس هذا حسنا على أى حال »

ـ إننى أذهب إلى كل اجتماع .

« نعم ـ ولكننى اريدك ان تلتقى ببعض الناس ، السود والبيض على السواء . إنه من المهم جدا أن تعرف أفكارهم وطريقتهم فى التفكير والعمل إن علينا أن نعمل جنبا الى جنب مع هؤلاء البيض ياجيدون »

فهز رأسه وقال « هذا ما أعتقده »

ـ هل لك أن تأتى لتناول الغداء معنا غدا ؟ .

وتردد جيدون ، فأخذ كاردوزوا يشجعه قائلا « أرجوك أن تأتى ، أرجوك »

ـ حسنا

ـ ولكن هذا لم يكن ما أردت أن اقوله لك . لقد تأثرت كثيرا مما ذكرته فى خطابك عن التعليم الالزامى . إن هذا الموضوع محل اهتمامى وشغلى الدائم ، واعتقد أننا إذا فشلنا فى هذا الامر فسيكون نصيبنا الفشل فى الدستور كله . وسيعرض هذا الموضوع على اللجنة فى الاسبوع المقبل . هل لك أن تعمل فى هذه اللجنة ؟

وحملق جيدون فى كاردوزو ؛ ولكنه لم يتبين أثرا واحدا للمزاح فى عينى الرجل . ووافق جيدون .

كان جيدون قبل ذلك بفترة وجيزة قد قرر أن يشترى حلة جديدة فعلى الرغم من جهود مستر كارتر فى رتق بنطلونه ، فقد وصل إلى حالة من لتمزيق لا يمكن السكوت عليها وقلما كان ينقضى يوم دون أن تتمزق سترته فى موضع ما . وكانت ضيقة عليه منذ البداية . وكان جاكوب كارتر قد صنع لجيدون زوجا جميلا من الأحذية مقابل دولارين ، ولكن حالة الملابس كانت قد وصلت الى حد الأزمة . وقالت مسز كارتر إنه من العار عليه كنائب فى الجمعية التأسيسية أن يحضر اجتماعاتها بهذه الخرق البالية .

فقال جيدون : ولكن الملابس تكلف مالا . ولدى طرق أفضل لإنفاق هذا المال ـ فقالت مسز كارتر :

ولكن الملابس تذهب حيثما ذهب الرجل بداخلها .

وحمل جيدون ما فى نفسه من مرارة وذهب الى محل العم بادى العجوز وبعد أسبوعين كانت الحلة قد أعدت ، ودفع جيدون عشرة دولارات لهذه الحلة السوداء الأنيقة .

كان الغداء فى منزل كاردوزو فى ذلك الوقت من عام ١٨٦٨ ـ كأنه فى فترة توقف فى التاريخ ، كما كان حادث الجمعية التأسيسية نفسه ـ بشكل ما ـ استراحة أو ثغرة أو فجوة ظهرت فى تاريخ أمريكا نتيجة طعنات الاتحاد وكانت تشارلستون تلك المدينة الجميلة الحالمة ـ درة الجنوب ـ ترقد ساكنة فى كثير من الأعياء . وكانت الحرب قد تركت فى المدينة آثارا لا تمحى من التخريب والتمزيق . كانت الثروات التى شيدت هذه المدينة الجميلة تقوم على أساس واحد هو ظهور العبيد السود . ولم يكن العمل وحده ـ وهو مصدر كل ثروة ـ مرتبطا بوجود العبيد ، ولكن العبيد أنفسهم كانوا رأس المال أيضا ـ أهم رأسمال يملكه الجنوب . وأتت تلك الحرب المدمرة التى حطمت نظام الجنـــوب وشلت قوانينه ومن بينها تشارلستون ؛ وجعلت أرضه

ميدانا لهجوم الجيوش وارتدادها مدة اربع سنوات كاملات فتحرر العبيد. تحرروا بموجب وثيقة وقعها ذلك الرجل العجوز المنهك فى البيض الأبيض بعد أن انتزعت الحرية قسرا عن طريق سواعد جيوش الاتحاد.

وفى الفترة التى اعقبت هذه الحرب مباشرة .. رقد الجنوب .. مشلولا عليلا. كان مائتا الف من عبيده السود قد حملوا سلاحهم ولبسوا شارات الشمال وحاربوا بأعنف مالديهم من قوة لينتزعوا حريتهم. وذابت جيوش الجنوب. وجلس قادة الجنوب فى أعياء يحملقون فى ذلك المنزل الجميل المشيد من قطع السكر، وقد ذاب وانهار فجأة. ووقف ملوك المزارع هؤلاء الرجال الذين كانوا يحركون هذه الحرب من وراء ستار بعد أن نظموها ودفعوا اليها وغرسوا أيديهم فيما جرته من انهار الدماء أملا فى استبقاء امبراطوريتهم الضخمة التى تنتج القطن والأرز والقصب والطباق وقف هؤلاء السادة يرون المعجزة تتحقق. ويتحرر العبيد ويتجزأ رأسمالهم الذى يساوى ملايين وملايين من الدولارات، فى لحظة واحدة .. ويذهب مع الريح.

وعندما أفاق المزارعون من هذه الصدمة المميتة أخذوا يفكرون فى سرعة. وذهبوا إلى أن هذا التحرير ـ هذه الخرافة ـ لا يمكن أن تستمر ومن السهل أن يظل العبد عبداً، ويبقى الأسود على سواده. لقد كانت هذه هى البدايه ولابد أن تكون هى النهاية أيضا .. وأن ما يجرى فى واشنطن شىء والضرورات العملية فى الجنوب شىء آخر.

وفى سرعة هستيرية أخذوا يعدون عددا من القوانين أطلقوا عليه اسم «المجموعة السوداء» وكان من شأن هذه القوانين أن تعود بالسود من الناحية القانونية إلى نفس الوضع الذى كانوا عليه من قبل أن تبدأ الحرب وكان الأمر سهلا فى بدايته. فقد كان هناك فى البيت الأبيض رئيسا دبر الأمر معهم وأخذ يؤيد حملة الأرهاب التى نظموها. وابتسم الواحد منهم للاخر وهو يقول: «ان تينسي جونسون رجل مفيد» وهم بهذا يهزأون

منه ويسخرونه فى وقت واحد . ومرة أخرى رأى المزارعون المستقبل يتفتح أمامهم - نفس المستقبل الذى كانوا يحلمون به دائما ، مشيدا على أكتاف أربعة ملايين من العبيد .

ومرة أخرى ، انهار ذلك المنزل الذى شيدوه من الورق . فقد قرر الكونجرس (مجلسا البرلمان) الثائر الحازم الذى ناضل فى أشنع حرب عرفها التاريخ - أن الدماء التى أريقت لا يمكن أن تذهب هباء . وفى ثورة من غضب أعضائه كان الكونجرس يقرر اتهام الرئيس بالخيانة — وقرر إرسال قوات من الجيش إلى الجنوب للقضاء على الفزع النامى - كما قرر دعوة الشعب إلى انتخاب جمعيات تأسيسيه فى المقاطعات لاعداد دساتير من شأنها أن تقيم فى الجنوب ديموقراطية جديدة يقف فيها السود إلى جانب البيض - يعملون معا لاقامة حياة جديدة .

وكان السكان السود فى مقاطعة كارولينا الجنوبية يفوقون البيض عددا . وبعد هذه الضربة القاصمه أحس المزارعون أنه لم يبق أمامهم غير طريق واحد - هو أن يعبروا عن عدم رضاهم بمقاطعة هذه الانتخابات ، وليدعوا هؤلاء الجهلة من السود وحثالة البيض يتقدمون وحدهم للانتخابات وستكون النتيجة أن ينهار ذلك المشروع الفظيع الذى يعده الكونجرس . وأتت الانتخابات - كما رسموا لها - بأغلبية كبيرة من السود فى الجمعيه ؛ ولكن هؤلاء النواب لم يكونوا سيركا كما تخيل أولئك بل بدأوا معا ، البيض والسود - يعملون فى بطء ومشقة .. ولكن فى اصرار وعزم على بناء دستور جديد .

وبينما حدث هذا ، كانت الطبقة الارستقراطيـة من البيض فى تشارلستون تقبع فى بيوتها ، وقدأغلقوا عليهم الأبواب وأخذوا ينتظرون. وكان منظر السلاح بين أيدي الجنود مما دعاهم إلى الهدوء والانتظار لفترة ما ، لم يكن لهذه الفترة ماض أو مستقبل .. وفى هذه الفجوة العميقة الشاذة التى حفرت فى مجرى هذا التاريخ - كان شىء مايحدث . وفى هذه الفجوة

من التاريخ أقيمت هذه المأدبة فى منزل فرانسيس كاردوزو . . وفى هذه الفجوة أيضا ارتدى جيدون جاكسون ملابسه الجديدة السوداء .

وواصل المزارعون انتظارهم .

كان أغرب ما فى هذه المأدبة الطريقة التى تطورت بها الأمور فيها وأن يكون جيدون هو ضيف الشرف فى المأدبة . وكان من بين المدعوين شخص يدعى ستيفان هولمز وهو نائب فى الجمعية ومالك سابق للعبيد . وكان هولمز يعتبر من الناحية الفنية « سكالاواج » وهو التعبير الذى أطلقه أهل الجنوب على الذين يتعاونون من البيض مع العبيد المحررين ومع جنود الاتحاد ولكنه فى الواقع لم يكن كذلك ، كانت طائفة (السكالاواج) تتكون فى معظمها من البيض الفقراء . ولكن هولمز كان وما يزال غنيا . وقد رفض القاعدة التى وضعها المزارعون من ضرورة عدم الاشتراك فى هذه الثورة المأفونة ، فانتخب فى الجمعية معتمدا على أصوات عبيده القدامى واحتل مكانه فيها كمراقب . كان يكتفى بالملاحظه والاستماع دون أن ينطق بكلمة . وكان مجاملا للبيض والسود على السواء واصبح على مر الايام لغزا مغلقا صمم كردوزو على حله . . فقد تحدث مع كاردوزو عدة مرات أبدى فيها اهتمامه بشئون التعليم والارض وقد قبل فى كرم تلك الدعوة المترددة التى وجهها اليه كاردوزو للاشتراك فى هذه المأدبة .

وكان قبوله للدعوة مما أقلق بال كاردوزو كثيرا ، فعندما كان أحد البيض يشارك أحد السود طعامه فى مدينة تشارلستون كانت الدنيا تقوم ولا تقعد . . وكان هذا هو ما أحس به كاردوزو على الاخص عندما قدم جيدون جاكسون العبد الآبق إلى ستيفان هولمز مالك العبيد السابق . وقد قال هولمز :

« انى انشرف بمعرفتك يامستر جاكسون » قالها فى لهجة ودية وفى هدوء كأن ماحدث كان من الامور التى تحدث عادة وفى كل يوم .

وقد لاحظ جيدون كيف كان كاردوزو حريصا ودقيقا فى حديثه

مع هولمز عندما قال « ياسيدى أن التعليم ضرورة . »

فتأمل هولمز « ضرورة ! » فقد كان هولمز محايداً تماما فى مواقفه لا يبدى رأيا و لكنه يتساءل دائما .. وكان تراجعه الدائم مثيرا حقا .

« إن الأمر فى غاية البساطة . فانه يمكن التعامل مع أربعة ملايين من العبيد غير المتعلمين . و لكن الامر يصبح مستحيلا مع أربعة ملايين من السود الأحرار غير المتعلمين »

فقال هولمز « إنها طريقة عجيبة فى التفكير حتما . وما رأيك أنت يامستر جاكسون ؟ »

فأجاب جيدون « اعتقد أن التعليم كالبندقية »

ـ كالبندقية ؟

وشده كاردوزو وأخذ الدكتور راندولف ـ أحد المدعوين السود ـ يعبث بملعقته . وابتسم هولمز وقال « أرجو أن تستمر »

وقد أدرك جيدون من هذه الابتسامة شيئا كان يبحث عنه . كان يدل على تغير فى نفسيتى هولمز وجيدون على السواء . لقد أصبحت المسألة صراعا بين قوتين . وفجأة توقف جيدون فى محاولته فهم حقيقة ستيفان هولمز . إنه لن يبلغ من ذلك شيئا ، وقال جيدون :

« نعم كالبندقية .. بل ربما خير منها . خذ مثلا رجلا ومعه بندقيته . وحاول أن تستعبده . عليك أولا أن تنتزع منه بندقيته . وأنت تخاطر فى هذا السبيل . فربما قتلك وربما لم يتمكن من ذلك . ولكن عليك فى كل الحالات أن تنتزع البندقية أولا ـ والآن بالنسبة للتعليم ، فأنك لا يمكن أن تنتزعه من رجل تعلم .. وهكذا فان التعليم كالبندقية من ناحية ، وخير منها من ناحية أخرى »

وقد انتهت هذه المأدبة بعد ذلك فجأة ، وفى ساعة مبكرة ولكنها أدت الى شىء آخر . فقد حدث بعد ذلك بأسبوع أن كان جيدون خارجا من قاعة الجمعية فاستوقفه هولمز وقال له :

« لدى بعض المدعوين فى منزلى يامستر جاكسون . فهل لك فى المجىء معنـــا ؟ . »

وتردد جيدون طويلا . ولكن هولمز قال مشجعـــا « إننى أرغب فى حضورك .. أؤكد لك . وعلى أى حال فما دمنا سنعمل معا . »

ووافق جيدون على الذهاب .

كانت الجمعية تتقدم فى طريقها . وفى بطء وحذر بدأت الاجراءات تتخذ واحدا فواحدا . بدأت بمسائل صغيرة ولكنها انتهت إلى مسائل كبيرة . وكانت المسائل الصغيرة هى التى جعلت الاتفاق ممكنا . فألغيت المبارزة وألغى الحبس وفاء للدين بأغلبية كبيرة . وكانت سذاجة أغلبية النواب هى التى جعلتهم يقبلون على شئون التشريع فى كثير من التفتـــح والاندفاع ـ فلم يكن وراءهم هرم ضخم من القوانين والعادات والتقاليد والنظريات . وهكذا أصبح المستحيل مقبولا . ولكن كثيرا ما كان الأمر البسيط معقدا لا يمكن حله . لذلك فان هؤلاء الرجال عندما تعرضوا للعلاقة بين الرجل والمرأة فى المجتمع حطموا تلك الحواجز التى ظلت راسخة على الاجيال . فقد ذكر أحد النواب البيض :

« لقد قاتلت مع الجيش أربع سنوات كاملات . كانت زوجتى طوال هذه المدة تقوم بشئون المنزل ، تطعم الصغار وتلبسهم وتحـــرث الأرض وتزرعها وتحصدها فى النهاية . وإنى الآن أسأل هؤلاء السادة ـ هل يزمعون إعطائى حق الانتخاب وحرمان زوجتى منه ؟ »

ووقف جيدون على المنصة : « لقد تزوجت امرأتى فى عهد العبودية . تزوجنا سرا فان السيد لم يكن يوافق على زواج العبيد . كنا فى نظره حيوانين متساويين . كنا متساوين فى العمل . وكنا متساوين عندما كان يوشك كلانا على السقوط فى مزارع القطن . وما من شك فى أننا كنا نتعذب ونأمل على قدم المساواة . ولذلك فاننى أقول ان زوجتى يجب أن تكون على قدم المساواة معى أمام الدستور »

وقد أوشك الاعضاء أن يقرروا مبدأ الاقتراع العام للرجل والمرأة لولا أن تحقيق هذا المبدأ ربما أظهرهم أمام الكونجرس فى واشنطن متجاوزين ما اعطى لهم من حقوق. ومع ذلك فقد كان من نتيجة هذه المناقشات أن ظهر أول قانون للطلاق فى تاريخ مقاطعة كارولينا الجنوبية . وكان قانونا بسيطا معقولا الى درجة دفعت صحف الجنوب الى الصراخ والهياج لأن هؤلاء الوحوش قد أسلموا البلاد للانحلال والفوضى . كما أدت المناقشة الى سن قانون آخر ينص على أن ملك الزوجة لايباع وفاء لدين زوجها . وكان هذا القانون أيضا الأول من نوعه فى كارولينا الجنوبية ودارت فى الجمعية مناقشة طويلة عميقة الى حد الغرابة حول حق الاقتراع، أدت بجيدون الى قراءة دستور الولايات المتحدة الأمريكية مرات ومرات حتى كاد يحفظه عن ظهر قلب . . وأخذ يناضل ومعه عدد آخر من النواب فى سبيل اقرار المساواة التامة بين البيض والسود أمام صناديق الانتخاب والغاء كل تفرقة عنصرية وفاز هذا الاقتراح بأغلبية كبيرة .

كان جيدون ينام قليلا فى هذه الأيام . وكان عمله فى لجنة التربية فما زاد هذا فى التقارب بينه وبين كاردوزو . ولم يكن جيدون يتأثر من أن هذا الأسود المتعلم النشط يستخدمه كبوق لآرائه . كان أحدهما من غرس العلم وكان الثانى رجلا لم يكد يذق طعم العلم حتى ثمل به . ومع ذلك فقد جلس الرجلان معا جنبا إلى جنب فى سبيل هدف واحد. كان فى رأيهما أن أساس الدستور كله ـ التعليم العام الإلزامى . وقد وجدا فى عملها هذا تأييدا ـــ كما وجدا ضده معارضة قاسية جامحة .

واستطاعت اللجنة فى النهاية أن تقدم مشروعها للجمعية . . واستمرت مناقشته فيها ساعات وساعات فى حرارة وحدة . ولاحظ جيدون أنهم وجدوا تأييدا من أناس كانوا فى اعتقادهم أبعد مايكونون عن تأييد مثل هذا المشروع ـ من نواب الجنوب البيض ـ هؤلاء الفقراء الاوشاب الذين حملت الصحف عليهم فى حدة أشد مما حملت بها على السود . . هؤلاء

البيض الذين حملتهم إلى الجمعية ناخبون من المستنقعات والمرتفعات والغابات ممن لا يملكون شيئا من الارض أو من الجاه لقد وقف آندرسون كلاى يصيح : « نعم . . إنى أوافق ! واذا كانت المدارس التى تجمع بين البيض والسود هى طريقنا فأنا بكل تأكيد اوافق على هذه المدراس . وإذا كنت قد استطعت ان اجلس مع السود فى الجمعية فان ابنى يستطيع ان يجلس معهم فى المدرسة »

وهكذا سارت الامور فى طريقها فى حزم وإصرار اعتادجيدون عليهما حتى لقد اصبح يتوقع نتيجة ايجابية بعد كل جلسة ، وبدأ هيكل الدستور يتضح على الاخص بعض ادخال الاصلاحات على النظام القضائى ، فقدأصبح القضاة ينتخبون بدلا من تعيينهم ، والغى كل تمييز عنصرى ، ووضع سياج متين لحرية التعبير ، واتخذ قرار ثان تشترى الحكومة بمقتضاه كبار الافطاعيات وتعيدها للبيع على اجزاء . وكان هذا الاجراء مذهلا . فان اقدام الحكومة الاتحادية على تحطيم نظام المزارع الكبرى كان اجـــراء لا يمكن تصوره . ومع ذلك فقد مر هذا الاقتراح واتفق عليه من حيث المبدأ .

وأحس جيدون بأن دهرا كاملا قد انقضى منذ أن نزل فى منزل كارتر حيث كان يجلس الى مائدة هذه الاسرة ، ويرسم مستقبل هذين الشيخين وقد اصبح فى نظرهم سببا كافيا لكى يفخرا امام اصدقائهما بأن جيدون جاكسون ــ النائب ــ يسكن فى منزلهما .

عندما دخل جيدون منزل ستيفان هولمز كانت هذه هى المرة الاولى فى حياته يدخل فيها مثل هذا المنزل الملىء بالنور والحياة وبكل مالا تحصره الالفاظ من جمال . ولقد حدث له فى طفولته أن كان يتردد عـــلى المطبخ فى قصر كارويل ولكنه لم يدخل فى حياته غرف هذا القصر ــ وعندما اصبح رجلا استطاع أن يدخل هذه الغرف ليجدها خالية . . مجـــردة من من كل حياة . ولكن هذا المنزل لم يكن خاليا ولم يكن مجردا من الحيـاة . كان النور ينبعث من المصابيح فى شــ ء وعندئذ بهرت عينيه . كانت

أرض القاعة بيضاء ناصعة . . كقطعة من الثلج . . وكان أثاثها يتلوى فى دقة وروعة ليحاكى طراز القرن الماضى . وارتفع سلم الردهة أمامه كأنه يرتفع إلى اللانهاية . . أما حجرة الاستقبال فقد قفزت أمام عينيه كأنها فم شيطان وأحس جيدون بالدوار واليأس . . ولم يخفف من إحساسه هذا تلك التحيـــة الحارة التى بدأه بها هولمز « إننى سعيد جـــدا بقدومك ياجاكسون »

وطأطأ جيدون رأسه . . فقد تعـــذر عليه النطق . وقاده هولمز إلى حجرة الاستقبال ذات الاضواء الساطعة . وخيل لجيدون أن الجالسين فيها قد نحتوا من الثلج بالرغم من كل ما يحيط بهم من دفء . . وقام بتقديم الحاضرين لجيدون ولكن أحدا منهم لم يقف أو يمد يده . . وعندما واجه جيدون ددلى كاروبل الذى كان سيده فى يوم من الأيام ـ لم يبد على الرجل أى أثر الانفعال ما . كان الحاضرون يتحدثون عند دخـــول جيدون . . وقد استمروا فى حديثهم ذاته بعد أن فرغ هولمز من تقديم جيدون وأحس جيدون بأنه حيوان وقع فى مصيدة . . أو عبد هارب قبض عليه لينال جزاءه من الجلد أو الضرب وأكثر من هذا! . . وأعنف ـ فقد أحس جيدون بخوف شديد .

وخيل اليه أن دهرا كاملا قد انقضى قبل أن ينتقل المدعوون فى النهاية إلى مائدة العشاء .

كان جيدون يعرف كيف يأكل الناس . فقد رأى زملاءه فى المزرعة يأكلون بطريقة خاصة ، ورأى الناس يأكلون فى منزل كارتر بطريقة أخرى ورآهم فى منزل كاردوزو يأكلون بطريقة ثالثة، ولكن طريقة من هذه جميعا لم تكن كتلك التى يستعملونها هنا . كانت طريقتهم مربكة حقا ، فبدا موقحا . وسقطت من بين يديه عدة أشياء . لماذا سمح لنفسه أن يقع فى هذا الفخ ؟

وأدرك أخيرا أن الحديث بدأ يوجه إليه ... كان هولمز يوجه المناقشة

فى اصرار نحو هدف معين ... هدف لم يستطع جيدون أن يدرك شيئا عنه، وأخذ ينصت اليهم فى عناية وتبين أن أحاديثهم ليست ذكية على الاطلاق. وفى لحظات كان عليه أن يزيح من فوق رأسه عبئا ثقيلا من أوهام الماضى. كان هولمز الوحيد بينهم الذى يصل الى مستواه . وقد ابتسم هولمز ابتسامة خفيفة عندما قال الكولونيل فينتون :

« أظن ياجاكسون أنك تجد فى صناعة القانون شيئا جديدا . شيئا يختلف كثيرا عن غيره ؟ »

فأجابه جيدون « انه عمل يدر ربما اكثر من جنى القطن ـ فاننا نعمل لقاء ثلاثة دولارات يوميا »

« أكثر كثيرا مما يحصل عليه أى رجل أمين فى هذه الأيام »

وأبدت جين دوبر دهشتها « وماذا يمكن ان يفعل رجل اسود بكل هذا المال »

وقال الجنرال جانفريت « انى اعتقد ياجاكسون ان فرض التعليم عن طريق القانون عمل سابق لأوانه الآن . الم تدرك ان العمل صعب فى الجمعية ؟ »

واجاب جيدون موافقا « لقد وجدته شاقا للغاية »

« لابد ان يكون الامر كذلك حيث انى اذكر انك كنت من رجال كارويل منذ بضع سنوات »

وابتسم جيدون « نعم . لقد كنت كذلك »

وسألته إحدى السيدات « أتعرف القراءة ؟ »

« لقد تعلمت القليل منها عندما كنت فى الجيش »

وساد صمت طويل حاول فينتون أن يقطعه فسأل جيدون « إنك تحمل اسما جنوبيا جميلا ياجاكسون . ولكنى أعتقد أن السود يحملون أسماء سادتهم »

فأجاب جيدون « نعم » . بعضهم يفعل ذلك . وقد كنت أعيش دون أن أحمل اسم أى عائلة حتى اختارونى جاويشا فى الجيش . وقال لى

الضابط الأبيض عليك أن تحمل اسم عائلة ياجيدون . من كان يملكك ؟ »
وهنا توقف جيدون عن الحديث . ونظر إلى كارويل واستولى عليه شبه اعتقاد بأن الرجل لابد وكان قاتله لولا حضور بعض السيدات . واستمر جيدون فى حديثه « لقد أجبته بأنى لا يمكن أن أحمل اسم الرجل الذى كان يملكنى عبدا .. فسألنى الضابط . وما رأيك فى اسم جاكسون »

ولم يتم جيدون قصته . فقد انتفض كارويل واقفا وصاح فيه « اخرج من هنا . أخرج أيها الشرير الأسود .....»

وعندما سار جيدون عائدا إلى منزله أحس بشىء غريب من الفرح يملأ قلبه . فكم من خرافة كانت تملأ رأسه تلاشت فى هذه الليلة العجيبة.

ولقد عاد النساء فى منزل هولمز إلى غرفة الجلوس وبقى الرجال وحدهم حول المائدة وقد أشعل كل منهم سيجاره . وقال الجنرال :

ـ إن هذا ياهولمز أمر لا يمكن اغتفاره لك .

ـ حسنا ايها السادة ! دعونى أتكلم لحظة ، لقد تعمدت ان اقيم هذا السرك هنا الليلة . لقد أخذت هذا الأسود لأضعه بينكم وانا اعلم ماسيترتب على ذلك . ولكننى لم اكن اتوقع بالمرة ان تفقدوا جميعا اعصابكم لمجرد وجود رجل اسود واحد على مائدتكم . دعونا نحلل هذا الموقف . لقد رجوتكم من اجلى انا ومن اجل كل واحد منا ان نقضى ليله مع عضو اسود فى الجمعية التأسيسية . إذ بهذه الطريقة وحدها يمكننى ان اصل الى غرضى . ولكننى لم اوضح لكم هذا الغرض عندئذ ـ هل انا واضح فيما اقول . إذن ارجوكم ان تحتملونى لحظة اخرى .

« ماهو موقفكم وما هو موقف الطبقة التى تنتمون اليها ؟ انكم إذ ووجهتم بأمر الاتحاد الخاص باعادة تنظيم المقاطعات رفضتم ان تقبلوا هذا الوضع ، وانتابتكم غمة ـ نعم لقد انتابت هذه الغمة كل طبقتنا فى الجنوب فرفضتم ان تسجلوا اسماءكم وان تصوتوا وأن تشتركوا فى المعركة ودعوتم السود وفقراء البيض بأنهم وحوش وقلتم ان هذا النظام سيحطم

نفسه بنفسه فى بضعة أيام . هل تعتقدون هذا أيها السادة ! هل تعتقدون ذلك حقا ؟ وهل لاحظتم مدى التقدم الذى أحرزته الجمعية ؟ هل أدركتم ذلك بأنفسكم وليس عن طريق قراءة صحفنا الغبية الحمقاء ؟

وجذب الجنرال نفسا طويلا من سيجاره وقال « ماذا ياستيفان - هل تقترح علينا أن نذهب إلى سيرك القرود هذا ؟ »

واستمر هولمز فى حديثه يقول : « لقد احضرت ذلك الأسود هذه الليله لسبب واحد . فمنذ سنتين أو ثلاث كان اميا تماما . وقبل ذلك بعدد من السنوات كان عبدا عند كارويل . فكيف رأيتموه الليلة ؟ هل هو قرد كبير ! امن الممكن ان يتنازل رجال مثل جيدون جاكسون فى سهولة عن كل ما كسبوه ؟ ومع ذلك فهم ايدوا وحدهم .. فانهم يتعلمون كيف يعملون مع الفقراء البيض الذين نظل نحتقر من شأنهم حتى نحتاج اليهم فى القتال . ولقد بدأ هؤلاء البيض الذين ايدونا فى الحرب يعيدون النظر فى موقفهم . ايها السادة .. إنكم عندما سلمتم الجمعية التأسيسية هؤلاء السود والبيض الفقراء ارتكبتم الخطأ الثانى فى حياتكم . وكان الخطأ الأول هو الحرب نفسها »

وسادت بين الجميع فترة طويلة من الصمت قطعها الجنرال بقوله : « إنهم لا يستطيعون الاستمرار ياهولمز سينهار كل ما اعدوه فى النهاية . فميزانية هذه المقاطعة لن تحتمل ما اعدوه من قوانين . وعندما تجرى الانتخابات .. »

« فى هذه الانتخابات سوف يزحفون إلى الحكم تماما كما زحفوا الى إلى الجمعية التأسيسية »

وسأل كارويل « واين نحن من كل هذا إذن ياستيفان ؟ »

— حيث لاشىء بالمرة .

وقال فنتون : هل فكرت فى هيئة الكلان ياستيفان.

« نعم .. لقد فكرت فيها بعض الوقت . وإن ماعملوه طوال السنتين اللتين عاشا خلالها ليس بالأمر الباهر .. ولكنهم هيئة منظمة على كل حال

وخير لنا بدلا من تشتيت جهودنا وإنشاء هيئات أخرى مناهضة ـ أن ننضم إلى صفوفها ونعمل معها . فإذا ما استقر رأينا على ذلك ، فعلينا أن نعمل فى سرعة وحزم قبل أن تقضى هذه الهيئة على مايرجى لها من نفع ـ وهاهو دوبرمعنا الآن .. فهو عضو فى الكلان ويستطيع مساعدتنا فى هذا ولكن هذه الاقنعة البيضاء التى يتومون بها فى غاراتهم الليله هى فى الحقيقة سخافة مضحكة ـ ومع ذلك إن لها بعض النفع . فالجبناء والمترددون يصبحون أكثر شجاعة عندما يخفون وجوهم .

ـ إنى لا أحب هذه الطريقة فى التعبير

ـ هكذا يادوبر ؟ هل أنت تعتزم ان تضع على رأسك فوطه بيضاء وتجرى طول الليل ؟ لا ـ ليست هذه إلا وسيلة . علينا ان نفهم هذا ولكى تكون هذه الوسيلة مجدية فاننا نحتاج إلى رجال .. إلى آلاف منهم من أين نأتى بهم ؟ سنأتى ببعضهم من الجيش .. ولكن عدد هؤلاء ليس بالكثير فمهما كان رأيك فى رجال جيشنا فان فيهم شجاعة وشرف وان يرضوا بلبس هذه الاقنعة البيضاء ثم بالقتل والشنق ونشر الرعب والفزع »

فصاح الجنرال « إنى لا أحب طريقتك هذه فى الحديث ياستيفان »

ـ ماذا أقول إذن ؟ أليس لنا ان نعترف حتى أمام انفسنا بالحقائق ؟ ومع ذلك فاننا نستطيع ان نحصل على العدد اللازم من الرجال .. فهؤلاء الطغاة الذين كنا نستخدمهم ملاحظين للعبيد ، واولئك الحثالة من الرجال الذين كانوا يعملون فى شراء العبيد وبيعهم .. او لئك الذين ليس لهم إلا خبرة واحدة هى بشرتهم البيضاء . أيها السادة سنجعل هذه البشرة البيضاء عنوانا للشرف .. سنحيل هذه البشرة البيضاء إلى نوع من الاجر ندفعه لهم مقابل ان يعيدوا لنا مافقدناه خلال هذه الحرب المجنونة . نعم كل ما فقدناه ..

وصاح فنتون مستفسرا . . « ولكن كيف ذلك ياستيفان ؟ إننا عندما حاولنا ذلك من قبل ..... »

« نعم ولكننا فى هذه المرة قد تعلمنا . سنبدأ فى خطى بطيئة ـ التنظيم ولا شيء غير التنظيم فى البداية . سوف ننضم إلى هيئة الكلان أيها السادة ونخضعها لنا ومادامت قوات الاحتلال هنا فعلينا ألا نعمل أى شيء ـ يمكن أن يقضوا عليه . ومع ذلك فان بعض الأعمال يمكن أن تبدو طبيعية كقتل أحد السود أو اغتصاب إحدى فتياتهم . . ومن الممكن القيام ببعض أعمال الإعلان كالقيام بغارة ليلية بواسطة فرسان مقنعين . ولكن علينا على العموم أن ننتظر وعلى بعضنا أن يشترك فى الأعمال السياسية لا كمعارضين بل مؤيدين لسياسة التعمير . . على النحو الذى أقوم به انا الآن »

وتساءل الجنرال « ولكن إلى متى هذا الانتظار ؟ »

« لا أعرف تماما ـ ربما سنتين أو ثلاث ـ وربما خمس . ولكن علينا أن ننتظر حتى نتأكد من النجاح . وخلال هذه الفترة علينا أن نشعر الشماليين بأننا نتألم ونكرر أننا أخطأنا .. وعندما نكرر هذا القول سيصدقه الجميع . وعلينا أن نقنعهم بأن السود المتوحشين قد حرمونا من كل ماهو جميل وفاضل فى هذه الحياة .. إن مركز الصناعة ينتقل من انجلترا إلى الشمال .. وسيصبح هؤلاء الشماليون طالبين القطن وسنعطيهم بعضه ، ولكن ليس إلى حد الكفاية حتى يقتنعوا بأننا أناس محبون للسلام .. وللحرية الأمركية .. وعندما يحين ذلك الوقت سنضرب ضربتنا فى عنف وقسوة .. وان يعلم الشمال عن ذلك شيئا واذا علموا شيئا فانهم لن يصدقوه . وعندئذ ستصبح الكلان جيشا كاملا ... يسحق ذلك الشيء الذى بدأ ينمو الآن . أيها السادة .. سيعود السود عبيدا كما كانوا وكما يجب أن يكونوا . »

كان هولمز يتحدث فى حرارة وحماس تركا أثرهما حتى فى قلب الجنرال وهو أقل الناس تأثرا . وأوقد هولمز سيجارا آخر .. وبعد ان ناقش

الآخرون خطته مؤيدين ومعارضين اقترح عليهم فى هدوء :
« هل نحتفل بالسيدات الآن ! »

* * * *

كان كل شيء قد انتهى الآن .. فقد وضع الدستور .. وصدرت القوانين الواحد تلو الآخر .. تضع تعريفات واضحة للحرية والحياة والرفاهية التى يتصورها شعب هذه المقاطعة من مقاطعات الاتحاد ـ الولايات المتحدة الامريكية كان ذلك فى ربيع عام ١٨٦٨ .. عام مضيء جديد باهر ووقف رئيس الجمعية يقول :

« الهنا .. يا إله الرحمة والعدالة والمغفرة .. إننا نسألك ان تبارك جهودنا . فإننا لم نكن نتعمد الخطأ ـ وانما أتيناه لأننا من اهل الفناء، ضعفاء للخطيئة والشيطان . . . »

فوقف اعضاء الجمعية جميعا ، اخذوا يرتلون فى اصواتهم العميقة الفخورة
« بلادى .. من اجلك انت .. يا ارض الحرية العذبة .. من اجلك انت أغنى ! »

* * * *

وسأل كاردوز ـ جيدون « ماذا تنوى عمله الآن ! »
« ان اعود لأهلى »
« لقد قضيت وقتا طويلا بعيدا عنهم أليس كذلك ! »
« طويلا جدا » وابتسم جيدون وقال « ان فينا معشر السود قلوبا مريضة بداء البيت .. وقديما كنت إذا بعت العبد وأرسلته جنوبا .. كان ذلك شرا مما لو قتلته .. إن بى ظمأ للعودة الى بيتى »

وكما هى العادة .. كان الأطفال اول من استقبل جيدون فى كاروبل جروا نحوه صائحين بأعلى ما يستطيعون ، يهرعون اليه من كل صوب .. وكان بينهم ماركوس .. ان جيدون لا يذكره فى مثل هذا الطول . اما جيف فقد اصبح رجلا وأتى فى المؤخرة يمشى ولا يجرى .. فى كثير من الاعتزاز . واخيرا كان جيدون يقف وقد احتضن راشيل بين ذراعيه .. وقد ابتلت عيناه وانتابه الخجل ان يبدو هكذا امام الصغار .

وكان اليوم التالى لعودة جيدون ـ يوم احد ، فعقدالاخ بيتر اجتماعه الدينى فى الهواء الطلق واخذ المجتمعون يرتلون فى نبرات قويه : « ياربنا أمدد لى يد الرحمة . وقدنى من يدى يارب » . . وبدأ الصغار يتغامزون ويتعابثون وشد بعضهم شعور الآخرين . وجرى بعضهم وراء بعض الكلاب المتجمعة حولهم وجلس جيدون وإلى جانبيه راشيل وجيف وماركوس وجيئ . ولم تدعه راشيل يجلس على الارض بسترته الجميلة من تشارلستون ففرشت له على الارض قطعة عريضة من القماش . كانوا جميعا فخورين بهيئته . واتجهت عينا جيف أكثر من مرة ناحية إلين جونز وكانت هذه الفتاة العمياء تجلس الى جانب مستر إللنبى العجوز ولاحظ جيدون هذا . وامتلأ قلبه فرحا .

وقال الأخ بيتر « لقد عاد إلينا الاخ جيدون . وسيحدثنا هو هذه المرة بدلا من حديثى المعتاد . سيذكر لنا ماذا حدث . . قف على قدميك ايها الاخ جيدون . تعال هنا حيث يمكن ان يشاهدك المجتمعون كلهم . »

وهكذا تحدث جيدون اليهم . . وفى أقصى ما استطاع من بساطة روى لهم كل ماحدث . وكيف مشى إلى تشارلستون وماذا كانت مخاوفه وكيف عمل حمالا فى الميناء وكيف سكن فى منزل كارتر ، وكيف وصل فى النهايه إلى مقعده فى الجمعية . ولأول مرهاستطاع ان يشرح لهم معنى الانتخاب وماذا يكمن وراء سياسة التعمير كما رسمها الكونجرس وكيف يمكن ان تتقدم هذه السياسه بعد ان وضع دستور المقاطعة الجديد . . وخطوه خطوه استطاع ان يشرح لهم النقط الواردة بالدستور موضحا الفرق الكبير بين اجراء ينص عليه فى الدستور وبين الطريقة العملية لتنفيذ هذا الاجراء فقد نص الدستور على التعليم العام فى مقاطعة كارولينا الجنوبية ولكن يجب توفر المال اللازم لهذا وتدريب المعلمين وبناء المدارس ـ وحتى يتم كل هذا يجب عليهم أن يتقروا العلم بكل طريق مستطاع واوضح لهم ان إلغاء

الفوارق العنصرية فى الدستور لايعنى الغاؤها فى الواقع بمجرد ورود هذه النص .. فإن ذلك يقتضى سنوات وسنوات .

وقال جيدون « والآن ماذا عنا نحن .. نحن الذين نعيش هنا ؟ كيف يمكن أن نحقق لأنفسنا هذا المستقبل ؟ حسنا .. لقد بحثت و نقبت ووجدت شيئا .. فقد باع ددلى كارويل هذه المزرعة لرجل آخر .. عجز عن دفع الضرائب . وهذا يعنى أننا سنواجه عاجلا أو آجلا ببيع هـذه الارض جملة واحدة أو قطعا صغيرة .. وعندئذ سنطرد من هنا ما لم نفعل شيئا . إننى لاأعرف تماما ماذا نفعل .. لقد فكرت فى هذا كثيرا وتبين لى أنه مهما كان الامر فلابد من الحصول على المال . ولكن من أين لنا هذا المال؟ هذا ما لا أعرفه الآن . ولكن فى هـذا مراعاة لليأس . فاليأس معناه الموت . وعلينا أن ننظر إلى المستقبل الباهر الذى ينتظرنا »

لم يكن الوقت هنا يمر فى سرعة وعجلة على نحو ما كان يحدث فى تشارلستون .

الشمس تغرب . والشمس تشرق ، وقد خلع هو ملابسه الانيقة وارتدى بنطلونه القديم وقميصه العتيق . وعندما كانت إحدى النعاج تعالج الوضع كان يجلس إلى جانبها ليلة كاملة فى الحظيرة . ولم تكن المتناقضات تبدو الآن واضحة وأخذ منظر أكواخ العبيد الذى ملأه رعبا عندما عاد ـ أخذ يعود رويداً رويدا إلى ما كان عليه من قبل .. منظر قديم عادى .

كان يقرأ فى كل ليلة على ضوء شمعة ـ فى صوت مرتفع غالبا . وكان ماركوس وجيف وجين وزاشيل يجلسون فى هدوء ينصتون إليه ، وكثيراً ما كان اللنى يأتى ومعه إلن جونز ـ وفى بعض الاحيان كان الاخ بيتر يزورهم ـ هو والآخرون أيضا . وكان جيف يراقبه وهو يقرأ .. وكثيراً مافكر جيدون فى أنه يوما ما سيستطيع التحدث إلى الفتى ليكشف ما يكمن وراء عينيه السوداوين ووجهه الاسود الجامد . أما ماركوس فكان يأخذ الحياة هينة لينة يثير فى نفس اللنى الاعجاب من قابليته للتعليم . كانت

هذه الفترة كلها فى الزمن نوعا من الاستراحة .. دفعت جيدون بعض الوقت إلى شيء من القلق المتزايد .

وقد حدث فى إحدى الامسيات أن كان الجميع يجلسون وقد أسندوا ظهورهم إلى إحد الجذوع الملقاة ومددوا أرجلهم على الارض .. مثلما كانوا يفعلون فى سابق عهدهم .. كانوا جيدون والاخ بيتر وهانيبال واشنطن واللنبى وأندروا وفردينا ند الذى أطلق على نفسه اسم لنكولن وأخذ يمضغ قطعا من الاعشاب .. ويبصق على الارض .

وتساءل هانيبال واشنطن : « قل لى ياجيدون .. ألن تشترى الحكومة الارض للسود ؟ »

« ربما ـ ومع ذلك فافرض أنها فعلت ذلك . إن الحكومة عبارة عن نحو ألف رجل يتحركون فى بطء شديد . وهى إن فعلت ذلك فعلته فى سنة أو سنتين وربما لم تنته منه أبدا . وربما قالت الحكومة هاكم قطعة من الارض هناك فى جورجيا فارحلوا اليها . وليس هذا ما نريد . فهنا عشنا وهنا وطننا .. ولابد لنا من هذه الارض بعينها »

« كيف ؟ »

فقال جيدون « علينا أن نشتريها .. علينا أن نعمل ونكسب المال .. وأن نشترى به هذه الأرض »

فقال إللنبى « ولكن ألا ترى ياجيدون أن هذا يقتضى قدرا كبيرا من المال ؟ »

فأجاب جيدون « بالتأكيد ، ولكن لابد من أن نبدأ على أى حال . فهناك البنوك تقرض مالا ـ نعم ، فإنها تقرض حتى للسود ، لو أنها وجدت منا شيئا باهرا ، وأدركت نيتنا ، واستطعنا أن نقدم لها جزءا من هذا المال . وهذه شركة السكك الحديدية تريد أن تمد خطوطها عبر ذلك المستنقع وتطلب رجالا تعطى للواحد منهم دولارا فى اليوم ، سواء كان أبيض أو اسود . هبوا أننا ذهبنا إلى هناك ، واشتغلنا فى هذا الخط الحديدى لستة

السابيع أو ثمانية »

« وزراعتنا ؟ »

« نستطيع أن نعود للحصاد . »

ورنا على الجميع صمت طويل قطعة الأخ بيتر قائلا « إنه لشيء محزن ياجيدون أن تأخذ الرجال بعيدا عن نساءهم » .

فقاطعه هانيبال واشنطن قائلا « بل إن الرأى مارآه جيدون » فاقترح عليهم جيدون . . «فلنعقد اجتماعا نناقش فيه الأمر » .

وفى الطريق سأل إللنبى جيدون « أتنوى أن تأخذ جيف معك ؟ »

« نعم ـ فقد أصبح رجلا قويا »

« لا . . لا تفعل ياجيدون »

« ولكن لماذا ؟ »

« لقد أصبح على علم تام بالقراءة وبالكتابة . إنه كبالوعة ضخمة تلتهم كل شيء . إنه يريد أن يدخل العالم كله فى نفسه ـ فى سرعة ورغبة تخيفنى ، وهو يعرف ما يريد ياجيدون ـ إنه يريد أن يصبح طبيبا » .

« ولكن من أين علمت هذا »

« لقد أخبرنى به »

فصاح جيدون « انه لم يذكر لى أنا شيئا من هذا ؟ »

« هل سألته فى شيء أبدا ؟ »

وأغرق جيدون فى صمت طويل حزين . . ثم تكلم فى بطء

« وماذا يريد جيف أيضا ؟ »

« ماذا تعنى ؟ إنه ابنك أنت . أذهب به إلى المستنقعات ، فسيكسب لنفسه دولارا فى اليوم ، وأنا لا أرى فى ذلك خطأ . ولكن علينا أن نبدى له الطريق فليس لدينا هنا أى مدارس حتى الآن ولكنه يستطيع أن يلتحق بإحداها فى الشمال . وهناك مدارس فى ماساشوسيتس تقبل السود بين صفوفها ، وتعلمه وتدربه »

فقاطعه جيدون فى كثير من الارتبـاك « ولكننى لا أعرف السبيل إلى ذلك »

« إن لك أصدقاء فى تشارلستون . ويستطيع صديقك كاردوزو أن يدلك على الطريق » فقال جيدون فى مرارة « وكل ما أصنعه . . أن أتركه يرحل بعيدا . . بعيدا . . ؟ »

****

اخذها جيف من ذراعها وطاف بها فى الغابة القريبة يصف لها الأشياء صغيرها وكبيرها . . وكل ما تقع عليه عينه

وسألته هى مرة « ماذا تعتزم أن تفعل ؟ »

« إن ما أرغب فى عمله يملأ إحساسى »

« لكن ما هو ؟ »

« أن أصبح كوالدك » وكان جيف هو أول شخص استطاع أن يتحدث اليها عن والدها .

فقالت « أتريد إذن أن تصبح طبيبا » ـ فأجاب « نعم ـ هو ذاك . . » وتتابعت الصور فى رأسه . كان طبيب القرية المجاورة رجلا سكيراذا لحية تعلق بها دائما فضلات التبغ . وعندما كانت احدى النساء تحتضر على فراشها كان يسمع حديثا وحشيا مضطربا حول الأطباء . ولقد فكر أن يسأل جيدون ـ فلابد أن والده يعرف ماهو هذا الطبيب ومع ذلك فانه لم يستطع ان يحدث والده فى الأمر . . لقد كان يقدس والده . ولكنه سأل إللنبى :

ـ مامعنى أن يكون الإنسان طبيبا ؟

****

لم يتحدث جيدون الى راشيل فى هـذا الأمر الا بعد أن وصله رد كاردوزو على خطابه . وقد ذكر كاردوزو أنه من الممكن ترتيب هذه المسألة وعلى جيف أن يذهب اليه فى تشارلستون . أما هو فسيتصل ببعض اصدقائه فى الشمال . ويكفى أن يكون مع جيف خمس وعشرون دولارا وسيرتب كاردوزو أمر ذهاب جيف الى بوستون بطريق البحر . وعندئذ فقط أخبر جيدون راشيل بالأمر كله .

ـ وأين هذا المكان ... بوستون ؟

وأجاب جيدون : أظن أنه على بعد الف ميل من هذا المكان . ولكن أتدركين مامعنى هذا ياراشيل ـ أن يذهب أحد أبنائنا ، ولد فى ظل العبودية إلى بوستون ليدرس الطب ..؟!

* * * *

كان الرئيس الأبيض رجلا طويل القامة كثيف اللحية يرتدى حذاء طويلا من الجلد وقد علق الطين بأجزاء متعددة من ملابسه ـ وقال لجيدون « هل تتحدث بالنيابة عن هؤلاء الرجال أظن أن عددهم اثنان وعشرون . نحن نعطى دولارا فى اليوم للرجل إذا كان معه فأسه وبلطته وجاروفه والعمل فى الأسبوع سبعة أيام ـ من الشروق إلى الغروب . وندفع الأجر فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع » ووافق جيدون على ذلك . وأشار الرئيس إلى بضع أوراق وقال : دعهم يوقعون هنا أو يبصمون .

كان جيدون وتروبر وفرديناند انكولن بين فرقة التقطيع . فكانوا يقضون اليوم كله وقد غرقت أرجلهم حتى الركب فى الوحل وهم يعملون بلطهم الحادة فى جذوع الأشجار . وقد كان هذا العمل بالنسبة لمعظم السود الذين تتألف منهم هذه الفرق ـ أول عمل حر من نوعه يزاولونه فى حياتهم وعندما فكرت الشركة فى إنشاء مكاتب العمل لها فى المدن القريبة لتدبير العمال اللازمين هز التجار رؤوسهم وأكدوا أن هذا ضياع للوقت . فلن يعمل العبد إلا والسوط على ظهره وإلا إذا كان فى حوزة أحد السادة . وقالوا أنه من الجزن أن يعطى السود دولارا فى اليوم .. فهذا من شأنه إفسادهم والقضاء عليهم فمن يتصور فى حياته مثل هذا الأجر ؟ وقد هز رؤساء الشركة ومهندسوها اكتافهم واستمروا فى عملهم للبحث عن عمال فقال أهل المنطقة : على أى الأحوال فإنه من غير الممكن مد خط حديدى عبر المستنقعات . ومع ذلك ، ولشدة دهشتهم فان العمل فى مد هذا الخط الحديدى أخذ يتقدم على الأيام . وعند ما كان يحدث أن تغوص أجزاء من الخط فى الوحل وتختفى نهائيا عن الأنظار كان المهندسون يعاودون ذلك

الأرض ويبدأون مد الخط من جديد . وعندما سقطت الأمطار وأحالت منطقة المستنقعات الى بحر واسع أسود من الطين والوحل كان الرجال يغوصون فيه حتى وسطهم ويضعون الأخشاب متحسسين بأطرافهم . وعند ما أخذ بعوض الملاريا ينشر الرعشة بين الرجال ويرسل بهم الى المستشفيات كان العمال الجدد يأخذون طريقهم للحلول محل الآخرين .

كانت هذه هى المرة الاولى التى يدرك فيها جيدون علاقة العمل بالحياة كلها وبالمدنية فقد سبق أن عمل هو وزملاؤه عبيدا سنة بعد أخرى لا يملكون شيئا ولا يحصلون على شيء ــ تماما كما يعمل البغل أو الثور . أما الآن فقد أعلنت السكك الحديدية عن شيء تريد أن تشتريه ، وهذا الشيء هو العمل وذهب جيدون ورجاله يبيعون عملهم مقابل دولار يوميا ونتيجة لعملهم ظهرت فكرة بل تحقق حلم ، خط حديدى لامع ، وقطار يدوى فى الليل وسيرحلون من هنا أحرارا ومعهم بعض المال ــ يستطيعون أن يشتروا به بدورهم ما يريدون ، وقد خلفوا وراءهم ما شيده الجهد والعرق .

ولم يكن جيدون يستطيع أن يعلم ما إذا كان هذا العمل يمكن أن يشيد على أساس عمل العبيد أم لا . ولكنه يعلم جيدا أنه ما من عبد استطاع أن يعمل فى حياته بمثل ما عملوا من نشاط حتى ولو هوى السوط على ظهره بين الحين والآخر . كان الرجال يعملون عراة حتى وسطهم وقد لمعت أجسامهم السوداء وتصلبت عضلاتهم ، وفى البداية كانوا ينشدون أغنيات العبيد القديمة .. ولكنهم سرعان ما أدركوا ان هذه الاغنيات لم تعد تصلح لهم فلم يعد إيقاعها البطيء يتمشى مع سرعة عملهم .. ولم تعد هناك دموع .

وهكذا بدأت الأغنيات الجديدة .. بلا كلمات فى أول الأمر ــ فقد كان لابد لهم من الغناء . وجاءت الكلمات بعد ذلك ، انعكاسات لما كانوا يفكرون فيه .. «الأخشاب القديمة لا تحب بلطى .. الأخشاب القديمة لا تحبها» .. وتتابعت الكلمات وتتابعت أنغام الاناشيد .

وأصبح جيدون خشنا . ففى كل مساء كان يحس بجسده يتهشم ، ولم

يكن يرغب أو يفكر إلا فى أن يلقى بجسده على الأرض الصلبة لينام.
النوم والعمل والطعام .. ولاشىء غير هذا . وبدأ يسأل نفسه...وأين إذن
العلم والراحة والكتب . أليس غير العمل والجهد فى حياة كهذه . لقد كان
التحول من العبودية قفزة كبيرة فى حياة المدنية . ولكن هل يمكن أن
يقف الانسان عند هذا الحد ؟

وبدأت الملاريا فى إحدى موجاتها الطاغية . وتحولت المستنقعات إلى
خلية حارة لاذعة . وأخذ البعوض يطن فى الآذان ويعمل اللدغ ليل نهار
وأصيب جورج ريدو ـ من رجال جيدون ـ بالحمى ، ومات بها فى اليوم
الرابع وقام هانيبال واشنطن والأخ بيتر بحمل الجثة الى منزل الرجل حتى
يتسنى للنساء أن يحضرن عملية الدفن ويذرفن دموعا تخفف عنهن المصاب...
ومهما يكن الأمر فعليك أن تدفع الثمن دائما :

وفى إحدى المرات سأل هانيبال واشنطن ـ

ـ جيدون ، هل يعمل البيض فى الشمال ، كما نعمل نحن هنا ؟

ـ ربما . . . البعض منهم على الأقل .

ـ بلا راحة .. ولا لعب .. وبلا نساء ؟

ـ ربمـــا

ـ وهل تعتقد أن هذا سليم ياجيدون :

ـ لا أعلم ـــ وسأحاول أن اعرف ذلك فيما بعد .

* * * *

قبل أن يبدأ جيدون مفاوضاته لشراء الأرض ذهب لزيارة آبنر ليته
وعند ما وصل الى الباب الخارجى وقف مستندا اليه منتظرا أن
يلاحظه ذلك الرجل الأبيض . وخرجت مسز ليت من باب المنزل ونظرت
طويلا الى جيدون وسرعان ما عادت الى الداخل . وعاد آبنر من فناء المنزل
الخلفى حيث كان يطعم خنازيره وحيا جيدون :

« عم صباحاً »

فرد جيدون « عمت صباحاً يامستر آبنر . ألاحظ أن قمحك قد علا على الارض وأنك قد زرعت عدة أفدنة قطنا . أظن أن هـــذا المحصول سينتج لك مبلغاً من المال العاجل . »

فقال آبنر « نعم .. إن استطعت أن أحصد المحصول »

ـ وستستطيع طبعاً .

ـ جميل منك أن تكون متفائلا إلى هذا الحد ..

فقال جيدون « هل أستطيع أن أدخل يامستر آبنر ؟ إننى فى منتهى العطش وسأكون شاكرا لو قدمت لى قدحا من الماء البارد »

وسرعان ماقال آبنر « نعم .. أدخل » وقاده إلى ظل شجرة كبيرة حيث تمدد على الارض .. وجلس جيدون بجانبه . وعاود حديثه :

« أن لك محصولا من حق أى رجل أن يفخر به حقا . ولكن من يملك هذه الارض التى تحرثها يامستر آبنر »

وحملق آبنر فى وجه جيدون « من يملكها ؟ إننى لا أعرف ولا يهمنى أن أعرف لقد كان يملكها دلى كارويل يوما ما ويبدو أنه باعها إلى فرجون هويت ، ويقال إن هويت قد هاجر إلى تكساس »

« تماما .. فأنا أعلم أنه لم يبق لكارويل أى شبر فى هذه الارض فقد ضاعت منه مقابل ماكان عليه من ضرائب »

ـ حسنا ذهبت . والله يعلم أنى لا أملك ما أستطيع أن أدفعه ضريبة

فقال جيدون فى هدوء « هذا هو لب الموضوع . فإن مزرعة كارويل ستباع بالمزاد العلنى فى كولومبيا فى شهر اكتوبر المقبل . لقد علمت ذلك من الموظف المختص . ومن المحتمل أن تقسم إلى ألف جزء وليس إلى أقل من ذلك . وعند مايحدث ذلك فإلى أين نذهب نحن يامستر آبنر ـ ماذا سيكون مصيرك أنت ؟ »

فأجاب آبنر فى اصرار « سأكون حيث أنا الآن . ولن يجرؤ مالك من البيض أو السود أن يطلب منى الرحيل من هنا . لقد اشتركت فى هذه الحرب وأى شىء بحق الشيطان قد عاد الى منها ؟ لا ياسيدى . سأظل حيث أنا ولن يطلب أحد منى أن أتحرك ! »

« عفواً يامستر آبنر - أرجو أن تفكر فيما تقول . إن أحدا لن يطلب منك أن تتحرك من هنا - هذا حسن . ولكن هذا ليس عمليا . فسيأتى الحاكم ويطلب منك ذلك .. ماذا يمكن أن تقول له ؟ هل ستناضل ضد القانون ؟ هل تقاتل مالك المزرعة الجديد والقانون والنظام إلى جانبه ؟ كيف يمكنك أن تفعل ذلك »

- لست فى حاجة إلى رجل أسود ليرشدنى إلى ما أفعل .

« حسنا - ولكنى أرجو أن تنتظر دقيقة واحدة يامستر آبنر ؛ إن ما تشعر به بالنسبة للسود هو من شأنك أنت ولن أناقشك فيه . ولكن دعنى أقول لك أنه مهما كان شعورك بالنسبة للسود فإن السود ليسوا أعداءك على أى حال »

وهنا قال آبنر فى هدوء « تستطيع أن تخرج من هنا .. إلى الجحيم »

فقال جيدون وقد تقلصت شفتاه « إننى أستطيع ذلك بكل تأكيد إننى أستطيع الخروج من هنا . وستقسم مزرعة كارويل فى المزاد العلنى وحينئذ ستكره العالم بأسره .. إننى أسألك ماذا ستفعل عندئذ ؟ سأقول لك شيئاً يامستر آبنر سواء أردت سماعه أم لا . لقد ذهبت أنا ورجالى نعمل فى المستنقعات لنحصل على مال نشترى به الارض . إن رجلا بلا أرض فى هذه البلاد لا يزيد عن أن يكون عبداً وليس هناك فرق يامستر آبنر بين العبد الاسود والابيض . وقد حصلنا على نحو ألف دولار حتى الآن . واذا استطعنا أن نحصل من أحد البنوك على قرض فسنحصل على قطعة من الارض تزيد على بضعة آلاف من الافدنة ، إنه شعور لذيذ حقاً أن تتقدم لشراء قطعة من الارض »

وأخذ آبنر ليت يهز قدميه فى بطء محلقا إلى الارض وقد بدأ يخط فيها اشكالا غريبة بإصبعه . ومرت دقائق والرجل الابيض لاينطق بكلمة ويكتفى بالنظر إلى راحتيه العريضتين . وراح جيدون يتأمله محاولا فهم بعض مايعتمل فى نفسه من صراع . من الذى يكرهه حقيقة ؟ وفى سبيل أى شىء اشترك فى هذه الحرب ! من أجل ماذا ؟ فالرجل لن يظل على حاله بعد سنوات من القتل والسير ومحاولة الخلاص من الموت . إن الرجل يستطيع أن يعود بعد هذا كله ليسير وراء محراثه وليطعم ماشيته ولكنه لن يعود كما كان .

وأخيرا قال آبنر مرهقا وقد خلت نبرات صوته مما كان بها من حدة « ليس لدى مال . إن كل مامعى ياجيدون داخل هذا المنزل أربعة دولارات وستون سنتا . . ولا شىء غير هذا » .

فقال جيدون « إنك لست فى حاجة الى مال . ان كل ما أريده الآن هو العائلات فإن ما كسبناه من مال يكفى لأن نبدأ به . . والا فلن نبدأ ابدا .. وهنا فى هـذه المزرعة سبع وعشرون عائلة ملونة وسبع عائلات من البيض يعيشون جميعهم على هذه القطعة المزرعة من قديم وسيطردون جميعا أو يصبحون مستأجرين اذا بيعت هـذه الأرض . فلنفرض أن ما يلزم العائلة الواحدة يتروح بين ثمانين وتسعين فدانا من الارض أو أقل أو أكثر ـ فإن قطعة مكونة من ثلاثة آلاف فدان تكفينا جميعا ـ وتكفى لأن تأخذ كل عائلة منا نصيبها » .

فسأل آبنر « ولكن ماذا تريد منى أنا ؟ ماذا فعلت فى حياتى من اجلكم انى لست من محبى السود حتى تأتى الى هنا لتتودد الى » .

فوافقه جيدون على ذلك ولكنه اضاف يقول :

ـ عليك ان تنظر الى المسألة على هذا النحو ان فى هذا الجنوب الذى نعيش فيه اربعة ملايين من السود وثمانية ملايين من البيض . وهنا فى كارولينا الجنوبية يزيد عدد السود على هذه النسبه . ولن تعود الأمور الى ما كانت

عليه فى الماضى . فقد قتلت الحرب ذلك الماضى . وستبزغ من الدستور والانتخابات حياة جديدة .. ولكن اى شكل ستأخذه هذه الحياة الجديدة يامستر آبنر ؟ انها لن تشبه حياتنا هذه فى كثير او قليل ـ بأكواخنا القذرة القديمة وعواطفنا القديمة وكراهيتنا وجهلنا الأسود . ولكن ماهى هذه الحياة الجديدة ؟ على اى حال فإنها لن تحدث من تلقاء نفسها . . وان شيئا لا يحدث من تلقاء نفسه ولن تكون هذه الحياة الجديدة طيبة مالم يشترك البيض والسود على السواء فى تشييدها . ولن ينتهى الحقد ويقضى على الكراهية بيننا حتى يكون المستقبل لنا جميعا على السواء . اننا سوف نكون أقوى عند شرائنا للأرض إذا اشتركت معنا ، وإذا اشترك معنا ماكس بروملى والاخوة كارسون وفريد ماكهوج »

«ولكنهم لن يقبلوا»

« ربما قبلوا يامستر آبنر . فإن دنيانا هذه تتغير . فلدينا الآن مدرسة صغيرة بين بيوتنا . وليس هناك من سبب يدعو لأن لا يذهب ابناؤك اليها وسيأتى يوم تبنى فيه الحكومة هنامدرسة حقيقية . إن لاشىء يمنع أولادك من الذهاب الى المدرسة مع أولادى إلا أنهم بيض بينما الآخرون من السود »

وهز آبنر رأسه .

« إن هذا شىء جدير بالتفكير يامستر آبنر . وهو يقتضى وقتا . . وأنا أفهم هذا ـ ولكن ليس هناك من سبب يدعوك إلى عدم الاشتراك فى مسألة الأرض هذه»

فأجاب آبنر فى إصرار « انى لا أريد من أحد من السود صدقة »

« ليس من الصدقة فى شىء أن تأتى لتقوى مركزى . وعندما أذهب إلى البنك وأقول أن رجالا من البيض يشتركون معى فى هذا العمل فسيقوى هذا من مركزى كثيرا »

وفكر آبنر قليلا ثم قال « ربما كان الأمر كذلك . . ولكن كيف

جاءك أنهم سيبيعون الأرض لنا ! »

« لقد تحدثت فى هـذا مع الموظف المختص فقال لى انها مسألة مزايده علنيه وسيرسو المزاد على من يدفع الثمن الأعلى »

« واذا فرض وكنت كاذبا ! »

فقال جيدون « افرض اننى كذلك »

ونظر كل منهما للاخر وللمرة الاولى ابتسم آبنر

« ومن الذى سيقوم بعملية الشراء ! »

« اختارنى زملائى للـكلام عنهم فى ذلك . وليس هذا نهائيا ، فنستطيع أن نعيد البحث فى هذا الموضوع . »

« سأعتمد عليك »

فسأله جيدون « اذن فستشترك معنا ! »

« نعم سأشترك »

« سأكون سعيدا وفخورا بأن أشد على يدك يامستر آبنر »

وصافح آبنر ليت يد رجل أسود لأول مرة فى حياته .

****

بعد ساعتين من الحديث مع الاخوة كارسون ذهبوا الى جيدون وأعطوه خمسة وستين دولارا لإضافتها الى المبلغ الاجمالى . أما ماكس بروملى فقد هز رأسه لـكل ماقدمه جيدون من حجج فليس له أى شأن بالسود . وكان هذا هو قراره الأخير . أما فريد ماكروج فقد قبل هو ونسيبه جيك ساتر واقتضى كل هذا ثلاثة ايام كاملة اغضبت أهل جيدون كثيرا فقد سألوه « لماذا نحتاج الى البيض ! » فالمال مالهم . وان احدا من البيض لم يمت بين المستنقعات .

وتحدث اليهم جيدون . واخذ يكرر الحديث ويعيده . كان نصفهم الى جانبه منذ البداية . وقد استطاع فى النهاية ان يقنعهم جميعا . وهكذا انتصر جيدون . وكان نصرا عظيما لم ينله منذ شهور . والآن . . استطاع ان يحتضن راشيل ويضمها بين ذراعيه . . كما كان يحدث فى الايام القديمة ، القديمة جدا .

وبعد ان انقضت اربعة ايام منذ ذهاب جيدون الى منزل آبنر ليت. اتى هذا الاخير من ناحية التل ومعه ولداه . وقال لجيدون « لقد تحدثت فى الامر مع هيلين . فرأت انه من الواجب ان يتعلم الصبيان شيئا من الهجاء »

كان الصبيان يتغامزان ويتدفان الحجارة بأرجلهم فصفعها آبنر فى لين. وقال ان لهما عقلين ذكيين . اما خجله من ان يأتى الى اكواخ السود فكان شيئا يحاول ان يتغلب عليه . وقد لاحظ جيدون ذلك فأخذ يبسط المسألة بقدر مايستطيع وقال :

« انى اشكرك يامستر آبنر . وستكون هذه هى البداية »

فهز آبنر رأسه . ووقف قليلا دون ان يستطيع الكلام . . ثم عاد من حيث اتى .

الفصل الثانى

وصل جيدون إلى محطة السكك الحديدية فى واشنطن متأخراً قليلا عن موعد وصول القطار القادم من نيويورك . كان القطار قد وصل إلى المحطة فعلا واستطاع جيدون أن يرى جيف واقفاً على الرصيف ـ شاباً طويل القامة عريض الكتفين ، كأنه صورة من أبيه ، يقف بين حقيبتين كبيرتين وقد وضع يديه فى جيوبه ، ولم تكن المسألة مسألة فكرة ولم تكن كذلك مسألة تغيير . فقد نظر الرجلان وتبين كلاهما الآخر . وبالرغم من أن كلا منهما قد كبر عدة سنوات فإن كلا الرجلين كان يشبه الآخر واقتربا وتصافحا . وبلع جيدون ريقه . وابتسم جيف فى هدوء تاركا إحدى يديه تتعلق بذراع أبيه .

وقال : انك أكبر مما كنت أتذكر »

ووافقه جيدون على ذلك وقال « وأنت أيضا »

ـ هل عرفتنى ؟

ـ نعم .. إننى سعيد بعودتك ياجيف .

وقال جيف « وأنا أيضا سعيد بهذه العودة »

وانحنى جيدون ليرفع الحقيبتين فقال جيف « بل سأحملها أنا »

« واحدة فقط »

« حسنا » وابتسم جيف وأخذ ينظر إلى جيدون فى عجب ويتأمله من قمة رأسه إلى قدميه بطريقة أحس معها جيدون بالثقة .

كانا يقفان كتفاً لكتف .. رجلان ضخمان يتحركان فى بطء وتردد يحاول كل منهما بعد كل هذه المدة أن يجعل حركاته وأفكاره ورغباته متمشية مع اتجاهات الآخر . وسارا على طول الرصيف ثم قال جيف

فى نبرة تنم عن الاحساس بالخطأ « وكيف حال أمى »

فقال جيدون « على خير مايرام ـ لقد كبر كل منا » فقال جيف : « ولكن لايبدو عليك شىء من ذلك » وكانت إحدى العربات فى انتظار جيدون خارج المحطة فصعدا إليها وملآها بسيقانهم الطويلة . وكان الثلج يتناثر حولهما كشبكة بيضاء ناصعة .

وقال جيف « لقد كنت أظن أن واشنطن مكان دافىء . فأنا لم أرها من قبل . »

فقال جيدون : نعم لم ترها من قبل . وأخذ يستعيد ذكرياته طوال هذه السنين الأخيره التى اصبحت فيهاهذه المدينة المغرورة جزءا من حياته . وأخذت حوافر الحصان تدق الارض فى نظام وهدوء . وقال جيدون : إن لى منزلا صغيرا فى هذه المدينة منذ سنتين .

ـ وأمى

فقال جيدون : لقد حاولت ان تمكث معى فى السنة الماضية ـ ولكننى أعتقد انها مرتاحة فى كارويل

ـ أما زلت تسمى هذا المكان كارويل ؟

وأحس جيدون بشىء من الارتباك « كارويل ؟ نعم لم يخطر ببالى أن نطلق عليه أى اسم آخر . أأنت مستريح ؟ » فقد كانت الحقائب تضغط على ركبتيهما ـ فقال جيدون بل مستريح تماما

ـ أظن انك جائع ؟

ـ نعم قليلا .

ـ سنجد الطعام معدا لنا فى المنزل ـ نحن الاثنين فقط .. فإننى لم أدع أحدا وعجب جيف . لماذا قال والده هذا .

كان منزل جيدون صغيرا . كان عبارة عن بناء ابيض يضم خمس حجرات . وكانت تقوم على العناية به واعداد الطعام خادم عجوز سوداء كان جيدون يسميها الأم جوان . وقال لها : أيتها الأم جوان . هذا هو

إبنى جيف

ـ إنه صبى كبير جميل يامستر جاكسون. لابد انك نخور به بل نخور جداً.

كان طعامهما بسيطا . وقد جلس الرجلان وجها لوجه .

كان الفاصل بينهما عميقا . سبع سنـوات كاملات . حتى أن كلا منهما كان يتكلم بلهجة مختلفة فقد كانت لهجة جيف أقل بساطة من لهجة جيدون وقد علقت بها لـكنة أجنبية غريبة .

وقال جيف : كنت اعمل فى اسكتلندا مع الدكتور كيندريك كان له له مستشفى ضخما فى منطقة المناجم ـ لقد كانت فترة تجربة عظيمة ـ فالحوادث كثيرة .. كسور فى الأذرع والأرجل .. حرائق .. الى غير ذلك .

ـ وكانوا من البيض ؟

ـ كنت الاسود الوحيد فى هذه البلاد . وهذا هو الفرق .

ـ ولم يكن هناك أى شعور عدائى .

ـ ليس على النحو الموجود هنا . كنت شيئا عجيبا فى نظرهم . أما هم فلم يكونوا مقصرين على الاطلاق . ومع ذلك فالخوف والريبة أساس ثابت فى حياتهم . ولـكنك تستطيع أن تضع اصبعك عليهما قليلا فيذهبان على الاثر

وانتقلا الى حجرة مكتب جيدون . وكانت حجرة صـــغيرة مليئة بالـكتب . وقد جلسا ومددا ارجلهما نحو المدفأة وتحـــدثا فى كثير من الموضوعات . وأصبح جيف الآن أكثر بساطة . واستطاع ان يقول :

ـ انت تعلم انى نخور بك الى حد مخيف ..؟

ـ علام.؟

ـ على انك عضو فى الـكونجرس . انى لا اعرف كيف اعبر عن هذا ولـكنه شىء عظيم ورائع حقا .

وشرد جيدون بناظريه « انها مسألة ظروف ولاشىء غير ذلك فالناس يصنعون . كانت الظروف وحدها هى التى خلقت منى هذا الرجل »

وسأله جيف عن الانتخابات فأخذ جيدون يحدثه عن تطورات الحوادث طوال السنوات الثمانى الماضية ـ كان يتحدث أول الامر فى هدوء ثم تطور

الهدوء إلى حماس وحماس بالغ خصوصا عندما أخبره أنه ذهب هذا اليوم نفسه لمقابلة رئيس الجمهورية .. ثم قال : ولكنى فشلت فيما ذهبت من اجله

ـــ ولكن .. هل أنت متأكد من ذلك ؟ وهل يمكن أن تنتهى الأمور هكذا فجأة على نحو ما تنفجر قنبلة ؟ هل يمكن أن تحدث الأشياء هكذا ؟

فقال جيدون : لم يكن الأمر فجأة . لقد كان الأمر يدبر منذ مدة طويلة فمنذ ثمانية اعوام أغار رجال من عصابة الكلان على أهالنا فى كارويل . كان عملا وقحا مخيفا . فقد حرقوا الأجران وقتلوا طفلين . ولم تكن هذه غير بداية . لقد كانوا يعملون على القضاء علينا . وعندما أوشكت الحرب على النهاية كان أولئك الرجال أنفسهم الذين صنعوا هذه الحرب يضعون الخطط لإثارة حرب جديدة .. ولكنها حرب من نوع جديد ، عصابات تغير فى الظلام .. ومنظمات سرية .. وأعمال ارهاب وتهديد . وها هى ترتيباتهم وخططهم قد تمت الآن .. وأصبحوا على أتم استعداد .

ـــ انى لا أصدق هذا

فقال جيدون : لو أنى أستطيع فقط الاعتقاد بأنى مخطىء . ولكننى لست مخطئاً على الاطلاق ..

ـــ وماذا أنت فاعل ؟

ـــ لا أعرف حتى الآن . وهذا ما أريد أن أفكر فيه . وعلى أى حال فإنى عائد الى كارويل فأنا أريد أن أكون معهم .

ووافقه جيف بهزة من من رأسه . فتابع جيدون حديثه :

ـــ انى اعتقد أن هـــذا خير لى أنا . ولكن ماهو خـــير لى ليس بالضرورة خير لك . أتدرك هذا ياجيف ؟

ـــ ماذا تريد أن تقول ؟

فقال جيدون : سأذهب أنا فى الأيام القليلة المقبلة . ولكننى لا اريدك أن تأتى معى فليس هناك من سبب يدعوك لهذا . وإذا تحسنت الامور فى الربيع ...

وصاح جيف : عن أى شىء فى الدنيا تتحدث ياوالدى .

فهز جيدون رأسه وقال : مهلا ياجيف . عليك الآن ان تستمع الى، فقد كنت فيما مضى تستمع حين أتحدث اليك . ووقف جيدون هنية . وفرك راحتيه بأصابعها الطويلةومال ناحيـة ولده ثم عاد فجأة فجلس على مقعده . جلس صامتا وقد سرح ببصره إلى لا شىء وأخذت ظلال المدفأة ترسم على وجهه خطوطا طويلة مرتعشة . وأخذ جيف يتأمل هذا الوجه . وجه ذلك الرجل الذى جلس فى مقعد مجلس الشيوخ بولاية كارولينا الجنوبية . ذلك الرجل الذى عمل فى برلمان الولايات المتحدة الامريكية وعندما أجاب على سؤال لممثل جورجيا ، نطق بهذه القطعة التى حفظها كل طفل فى هذه البلاد :

« نعم .. لقد كنت عبدأ منذ سنوات قليلة كما يقول ذلك السيد من جورجيا . واليوم وانا رجل حر . استطيع ان اجيب عليه فى برلمان هذا الشعب . هذه ايها السادة هى شهادة بلادى . شـهادتى الامريكية ولست بحاجة الى الخوض فى العواطف الوطنية . ولكن هذه الحقيقة وحدها . وهى وقوفى فى هذا المكان ، فيها التعريف الكافى بذلك البلد ـ وطنى الذى احب، وهو تعريف خير من كل ما يستطيع رجل أن يقول »

لقد رأى جيف هذه القطعة تنشر ويعاد طبعها فى صحف اسكتلندا . وقد نوه به أحد اعضاء البرلمان فى مجلس العموم البريطانى كما أثار مناقشة حامية فى مجلس النواب الفرنسى استمرت ثلاث ساعات . اما فى المانيا والمجر وروسيا فقد تلقفته جماعات العمال الثورية السرية وترجمته الى لغاتها ووزعت منه آلاف النسخ .

والآن وجيف ينظر الى جيدون ، انتابه شعور ملىء بالتقصير فيه الرثاء والفخر والشوق والرغبة الجامحة فى ان يقترب كثيرا من هذا الرجل ـ والده وفى ان يفهمه وان يجعل نفسه مفهوما لديه .

وقال : سأستمع اليك . ومهما كان الامر فأستمع اليك دائما .

واخذ جيدون يشرح له فى هدوء ويسر : سأعود انا الى كارويل لأننى

أنتمي اليها فشخصيتي وكل ما صرت اليه يرجع الى عشيرتي هناك .خرجت منهم واليهم وحدهم ترجع قوتي . لقد اقتضاني فهم هذا وقتا طويلا . وان لدي هذه الهبة وهي أنني استطيع ان اتعلم وان اتكلم وان افحص الاشياء ومع ذلك فكل شيء في شخصيتي يرجع اليهم هم . وأنا أريد ان أعود اليهم لان هذا يمنحني سعادة كبرى ومن طبع الانسان يا جيف أن يسعى الى سعادته سواء فيما يأتيه من اعمال صغيرة أو ما يأتيه من جليل الاعمال . أما بالنسبة اليك فان الامر يختلف فقد كنت بعيدا عنهم مدة طويلة . وقد تعلمت في المدارس وتدربت على عملك بعد ذلك وقد اصبحت الآن طبيبا والطبيب كتاب جميل فائدته تختلف عما بذل فيه من جهد . أما أنا فليس لي من فائدة خارج نطاق العناصر التي كونت نفسي . ومهما ساءت الاحوال فإن عشيرتي تستطيع ان تجد جيدون جاكسون غيري . اما بالنسبة اليك فإن الامر يختلف . انني استطيع الآن ان أتكلم معك كرجل . وأنا فخور بهذا سعيد معا . وعندما قلت للرئيس جرانت اليوم أنني اعتقد أن هذه هي آخر مرة لعدة سنوات يستطيع فيها رجل اسود ان يتحدث الى رئيس الجمهورية كنت أقول ما اعتقده حقا . كما أنني اعتقد ان قليلا جدا من السود سوف يمكنهم الوصول الى ما وصلت اليه انت وذلك لسنوات طويلة مقبلة . ابق هنا . ويمكنك ان تعيش في هذا البيت . وستجد عددا كافيا من الجرحى لعلاجهم . اما اذا أردت العودة معي فسيكون هذا هو الضياع بعينه .

وعندما انتهى جيدون من حديثه ظل الرجلان صامتين لبضع دقائق . ونظف جيف غليونه وملأه طباقا وأخرج قطعة من الفحم الملتهب من المدفأة ووضعها على الطباق اللين الناعم . وصب جيدون لنفسه قدحا من الشراب . واخذ جيف يتأمل الحجرة ببصره وقال : انها حجرة جميلة يملؤها الدفء . كم أود أن اقرأ فيها بعض الكتب .

وهز جيدون رأسه موافقا .

وقال جيف : إنني أقول دائما ، غداً سأقرأ بعض الكتب عندما يسمح

وفتى بذلك . ولسبب ما فإننى لا أجد وقتا لذلك طوال ايامى هذه .

فقال جيدون : بل هناك الوقت الكافى .

فسأله جيف : قل لى . لو ان الامور تطورت على النحو الذى تظن انها ستطور اليه فهل سأناضل !

فأجاب جيدون لست أدرى .

ـــ لقد كتب لى أخى ماركوس يقول : انكم عندما يمرض أحدكم تستدعون الدكتور ليد العجوز وهو يأتى فى بعض الاحيان ، ويمتنع عن الذهاب فى البعض الآخر .

ـــ بل يأتى فى معظم الاحيان

فقال جيف : ولكنه لن يأتى مرة أخرى فإذا كان ما قته لى صحيحا فهو لن يأتى مرة اخرى . ونهض جيف وسار نحو النافذة وأخذ يمسح بإصبعه ما علق على زجاجها من بخار وقال : إن البرد ما زال يتساقط ، انه لمن المضحك أن يعيب الانسان مثل هذه المدة الطويلة ، اننى لم استطع ان احب مكانا غير هذه البلاد ، هل عرض عليك اللنبى الرسائل التى كنت أبعث بها اليه ليقرأها لإلين !

فهز جيدون رأسه وقال « لقد مات الرجل فى الشهر الماضى وكنت أعتقد أنك تعرف ذاك »

فقال جيف : « بل لم أكن أعرف شيئا . . انى صادق معك ياوالدى » .

***

استقل جيدون وجيف قطار الساعة الثالثة فى طريقهما إلى الجنوب. ولم يحمل جيدون معه شيئا كثيرا . . حقيبة صغيرة وحافظه أوراق وضع بها نسخة قديمة من ديوان الشاعر هويتمان وصورة موقعا عليها من شارلس اهداها له قبيل وفاته بقليل وكراسة صغيرة . كان يعتزم أن يكتب تقريرا عن تطورات المؤامرة الأخيرة . وفكر فى أن يبدأه فى القطار ليقطع به ساعات السفر .

وسار جيدون وإلى جانبه جيف على رصيف المحطة مارين بعرباته

القطار كلها وقال جيدون « إلى العربة الأخيرة »

« لماذا ؟ »

ففطن جيـــدون إلى ابنه وقال « ألا تعلم ذلك . . ألا تعلمه . ؟ اتذكر عندما قلت لك أن ماحدث لم يكن على نحو ماتنفجر قنبلة . فأنت ترى . . لقد كانت الامور تتطور منذ مدة طويلة »

ووصلا إلى العربة الأخيرة . . وكانت عربة عجوز قديمة قذرة النوافذ وقد وضع محل اثنين منهما قطعتان من الخشب . وقدكتب على بابها فى بساطة عبارة « للملونين » . . قرأها جيف وتحول إلى والده :

« لا . . لا . . مستحيـل ! هذا شيء قـــذر . ! وأنت ـ عضـــو الـكونجرس » فقال جيدون هيا ياجيف . . ادخل فليس هذا بجديد . لقد صرنا إلى هذا فى وضوح وعلانية وقداعتدناه »

ودخلا العربة وجلسا متجاورين على لوح خشبى عتيق . وامتلأت العربة بالملونين . ثم تحرك القطـار فى موعده . . . . وقال جيـدون :

« على أى حال .. سينتهى هذا قريبا .. وبعد قليل سنكون فى كارويل »

* * * *

كان جيدون واقفا والى جانبه جيف والين يراقبون هانيبال واشنطن وهو يبنى مدخنة منزلهم الجديد . وظهر آبنر ليت فى عربة عائدا من المدينة وعندما اقترب منهم ربط اللجام وخرج من العربة ووقف إلى جانب جيدون وسأل هانيبال واشنطن « ومن أين تعلمت كل هذا ؟ »

« تعلمت عن والدى ـ فهـو الذى بنى المداخن السبع المرتفعـة فى القصر الـكبير . »

« لا تقل هذا ! »

فقال هانيبال واشنطن « بل أنا أوكده لك . وقد حدث هذا منذ زمن »

« ومتى بنوا ذلك القصر الـكبير ! »

« منذ خمسين سنة تماما »

فقال آنبر « يخيل الى أنه كان منذ الازل » وسارجيدون مع آنبر ليت. وراء العربة وقال الرجل الابيض « لقد وصل الآن فقط من المدينـــة. ياجيدون والظاهر انك على حق . فقد اتفق رئيس الجمهورية مع ذلك القذر. العجوز هاملتون ، وقد تلقى جنـود الجيش فى كولومبيا أوامرهم بالرحيل. يوم ١٠ إبريل حيث يستقلون القطار الى الشمال »

« من قال هذا ! »

« اقرأ هذه الصحيفة » وذهب آبنر ليت الى العربة وأخذ منها احـدى. الصحف وأشار الى عناوينها الضخمة : الجنوب ينتصر فى معركة التحرير الثانية.

وقال آبنر ليت « هذه هى ـ القصة كلها هنا . والمدينة مختلفة بالاقاويل. وهناك يسير الوغد جاسون هوجر رئيس عصابة الـكلان فى ملابس عسكرية يستعد للاحتفال برحيل الجيش عن كولومبيـا ، لقد قلت لى لا تثر المشاكل. هناك .. وفعلا لم افعـل شيئا من هذا .. واكتفيت بالنظر الى هذا الوغد القذر هوجر . أين كان يحارب هذا الرجل ! لقـد كنت فى معظم ميـادين. الحرب ولـكننى لم أسمع عن رجل بهذا الاسم »

كان جيدون يقرأ الخبر .. يقفز ببصره بين السطور فى سرعة وعصبية .. لقـد وقع الرئيس هيز ـ بعد اتفـاق ودى مع الحاكم ـ على أمر من شأنه. إقرار الديموقراطية والحـكم الذاتى فى الجنوب . وسترحل آخر القـــوات. الاتحادية من هناك يوم ١٠ إبريل . . . . »

« وما الذى ستفعله الآن يا جيدون ؟ »

« أليس اليوم هوالسادس من إبريل ؟ لقد بقيت أمامنا أربعة أيام .. سأذهب الى كولومبيا . لست ادرى ما أفعله هناك .. ولـكننى سأحاول أن أفعل شيئا » .

****

عندما انتهى جيدون من كتابة برقيته فى مكتب البريد بكولومبيـا، سلمها إلى الموظف وكان شابا فى التاسعة عشرة من عمره له وجه ضيق . وقال له. جيدون « أرجو أن تقرأ البرقية على » ونظر الفتى اليه ولم يتحرك .

« قلت أرجو أن تقرأها »
وقرأ الفتى .

« رذر فورد هيز ـ البيت الأبيض ـ واشنطن » .
ألتمس إليك ياسيدى الرئيس ان تؤجل قرارك الخاص بسحب جنود الاتحاد من كولومبيا . ان الغاء قوات الحرس الوطنى التى يشترك فيها السود وفقراء البيض يجعل كل قوى التعمير معتمدة تماما على حماية قوات الاتحاد أخشى وقوع الفوض والإرهاب . . الجمهوريون المخلصون هنا لا يمكنهم أن يفهموا سحب كل العناصر الأتحادية من الجنوب . إننى ألتمس مساعدتك وعطفك .

جيدون جاكسون
نائب كارولينا الجنوبية .

وسأله جيدون « كم يكلف ؟ »
وتردد الفتى قليلا ثم قال « عشرة دولارات »
ونظر اليه جيدون لحظة . . ثم دفع له المبلغ . . وانصرف . وعاد الفتى إلى الموظف الجالس أمام جهاز الارسال وقال « انى لم أر فى حياتى رجلا أسود يعرف كم تكلف البرقية ـ غير هذا الرجل ـ
« عليك اللعنة ! كم دفع لك ؟ »
« عشرة »
« انك تكذب . . حسنا . . اعطنى اياها »
واعطى الفتى البرقية الى زميله الذى قرأها ثم صفر بفمه واعاد قراءتها جيدا .
ـ من اعطاك هذا ؟
ـ رجل ضخم اسود
ـ حسنا .. اذهب بهذه البرقية الى القاضى كلايتون . اسأله عما اذا كان يمكننا ارسالها ولا تدع فمك اللعين يتكلم

وبعد حوالى ثلث الساعة عاد الفتى قائلا . « لقد احتفظ القاضى بالبرقية وأعطانى دولارا »

ـ انك تكذب !

ـ وقال القاضى انه من الخير لنا أن نسكت ولا نتكلم أبدا .. والا فإنه سيحقق ..

وعندما غادر جيدون مكتب التلغراف ذهب ليرى الكولونيل ولياقر قائد القوات الاتحادية . وكان الكولونيل مشغولا ذلك اليوم . ولم يستطع جيدون الدخول اليه الا بعد ساعه ونصف من الانتظار . وقد قال له : « أيها النائب . انى آسف فإن كل رجل فى الجنوب يريد ان يقابلنى اليوم »

فقال جيدون موافقا « انا اعلم هذا .. ولكننى لا اعرف ما اذا كانت حالتى تختلف قبيلا . هذه هى صورة البرقية التى ارسلتها اليوم إلى رئيس الجمهورية . وربما يأتى الرد فى يوم او خلال عشرة ايام . فحتى يأتى الرد ارجو ان تستبقى جنودك »

فقال الكولونيل « لا استطيع ذلك . وانا آسف »

ـ اتعلم ماذا يعنى رحيل الجنود

فأجاب الكولونيل « ايا كان ما يحدث فعلى ان انفذ الأوامر . واذا اردت فعليك بالجزال هامبتون قائد المنطقة »

فقال جيدون « لا فائدة من هذا ـ فلن يسمح لى .. وانا اعلم ما معنى الأوامر فقد كنت فى الجيش ياكولونيل »

ـ لا فائدة الآن

ـ الا ترى ان الرئيس لا يمكنه ان يتجاهل هذه البرقية

ـ لن اسمح لنفسى بأن إقدم لمحاكمة عسكرية

ـ ان لى بعض النفوذ فى واشنطن

فقال الكولونيل وقد بدأ يرفع من صوته « لا استطيع ذلك . وصدقنى ياسيدى مهما تكن رغبتى فى فعل ذلك فإنى لن استطيعه . الا ترى ان لى

عينين ارى بهما ! ومع ذلك فإننى رجل عسكرى ولست من رجال السياسة »
ووقف جيدون برهة وقد تملكته عوامل الغضب والحسرة والرعب واخيرا هز رأسه وقال « انى آسف »
فقال الكولونيل « وانا آسف ايضا »
وغادر جيدون المكان .
وبقى فى كولومبيا حتى اليوم العاشر من الشهر وهو يتردد بين كل يوم وآخر على مكتب التلغراف . وفى اليوم التاسع ارسل برقية اخرى . وفى اليوم العاشر اخذ يشاهد الجنود فى طريقهم الى محطة السكك الحديدية . . ثم عاد الى كارويل .
كان ذلك فى صباح اليوم الثامن عشر من شهر أبريل سنة ١٨٧٧ فى كارويل . وكان جيدون يتحدث على مائدة الافطار إلى ماركوس فقال :
« أريد أن أزرع فدانا آخر من الطباق لا من القطن » كان يتكلم وقد أسندت بندقيتان إلى جانب الباب تنتظران الرجلين عند خروجهما .. وكانت هذه هى عادة أهل كارويل فى هذه الايام الاخيرة بعد أن تعددت حوادث الاعتداء عليهم .
ـ ولكن هذه الأرض ليست أرض الطباق
فقال جيدون « ومع ذلك فإنها تنتج منه أوراقا طيبة ليست فى جودة أوراق بيد مونت أو فرجينيا ولكنها طيبة على أى حال . وهذه الاشياء الصغيرة التى يطلقون عليها اسم السجائر تزيد من تدخين الطباق »
ـ ولكن الطباق يفسد الارض .
« وكذلك القطن . فأنت تضعف أرضك فى كلا الحالين مالم تحرث الارض أو تتركها بعد ذلك ردحا من الزمن . إننى أقول ذلك منذ سنين »
فقالت راشيل : إذا كان الأمر لى فإننى أزرعها قمحا .
ـ ولكننا لسنا من كبار المزارعين .

ـ أعليك أن تعمل تماما كما كان جدك يفعل ؟ .
وقالت جيني : أريد أن أذهب إلى السوق بعد الظهر.
ـ تذهبين إلى المدينة .
ـ نعم .
فهز ماركوس رأسه .
ـ لماذا ؟
فقال لها جيدون : سيذهب البعض إلى المدينة بعد أيام ..
ـ ولكن اليوم جميل .
فقال لها ماركوس : عليك أن تبقى هنا .
ولكنني لا أتلقى الأوامر منك .
ـ ولكنك ستبقين هنا ! .
وبدأت جيني تبكي وأخذت إلين ـ وكانت تجلس إلى جانبها ـ تتحسس يديها .
ونهض جيدون وتبعه ماركوس .. وقبل أن يغادر جيدون المنزل نظر إلى البندقيتين بالقرب من الباب .. وتردد لحظة .. ثم أخذ احداهما وخرج بها .

وفي الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم كان جيف في منزل ماريون جينوسوف . فقد أصيبت زوجته لوين بحبيبات ملأت يديهـا .. لم يكن الامر خطيراً ولكنه كان قويا وثقيلا وكان يقلقهـا الليل طوله . وقد أشار عليها جيف باستعمال مرهم مخفف ثم إنه عزم على قضاء بقية اليوم في منزل ماريون . فعندما كان جيف صبيا كان قريبا جدا إلى قلب ماريون وعندما أصبح طبيبا صار إلاها في نظر ماريون . وبينما كان الاثنان يتحدثان في شتى الموضوعات في ساحة المنزل أتى إليهما تروبر مسـرعا .. وبعد أن سيطر على أنفاسه قال :

ـ جيف .. لقد رأيت منذ لحظة جاسون هوجر و الحاكم بنتلي في طريقهما إلى منزل والدك . كنت واقفاً فوق التل وقد تأكدت من عربة الحاكم تماما . وأقسم أن الرجل الذي معه في العربة جاسون هوجر .

فقال له جيف : حسنا .. إنه شيء لايدعو إلى الخوف .

فقال ماريون : يحتمل هذا ويحتمل ذلك .. فما رأيك فى الذهاب معا إلى هناك

ودخل ماريون إلى المنزل وتناول بندقيته .. فسألته زوجته فى رعب «ماذا هناك ؟»

فابتسم لها وقال «لاشيء .. سوى أن الحاكم فى طريقة إلى جيدون .. وسنذهب الى هناك لنرى مايجرى . »

لا تسبب مشاكل ياماريون .. فلدينا الكثير منها .

فقال ماريون : لن أتسبب فى شيء على الاطلاق .. ولن تكون هناك أية مشاكل وعلى أى حال.فاذهبي أنت إلى آنبر ليت وأخبريه أن الحاكم ذاهب إلى جيدون

كان جيدون وماركوس مشغولين منذ الصباح فى عمل حفر صغيرة فى الارض ووضع البذور فيها ثم تغطيتها . وكان العمل مريحا فى هذا الصباح الذى طاب صحوه فكان الرجل فيه يستطيع أن يضرب بفأسه كما يشاء واضعا همومه فيه وفجأة استطاع ماركوس أن يتبين عربة الحاكم الصغيرة فى طريقها إلى منزل جاكسون .

فوقف وأشار إليها .. وقال جيدون « الحاكم ؟ فقال ماركوس « إنها تشبه عربته .. سأذهب إلى هناك لأرى »

ووافقه جيدون .. وأخذ كل منهما بندقيته وأسرعا ناحيــة المنزل . وعندما أصبحا فى ناحية التل التى تخفيهما عن الطريق وراءه جريا ناحية المنزل. فوصلاه لاهثين بعد أن وصلت إليه عربة الحاكم بدقيقة أو دقيقتين . وقد ظهر بها جاسون هوجر والحاكم وقد لبس كل منهما حذاء طويلا ووضع بندقيته على ركبتيه . وكانت راشيل أمام المنزل وقد امتلأت رعبا..وعندما رأت جيدون وماركوس تنفست الصعداء .

قال جيدون « صباح الخير أيها الحاكم » وخرجت كل من جين وإلين

من المنزل ووقفا خلف راشيل . ووقف ماركوس والبندقية فى يديه وقد توترت أعصابه . وكانت راشيل وحدها هى التى تعلم أنه فى حالته هذه كقنبلة ضخمة .. هادئة تماما .. ولكنها على استعداد للانفجار فى أية لحظة

وأشار الحاكم إلى بندقية جيدون وقال :

ـ أكنت تصطاد ياجيدون ؟

وصاح به ماركوس

ـ ربما .. وعندما توجه الحديث إلى والدى فعل له أيها السيد »

ـ أفهمت ؟

وزأر جاسون هوجر : سيد .. سيد ؟!

ـ نعم .

فابتسم هوجر قائلا : حسنا أيها السيد .

وسأل جيدون فى رفق « ماذا يمكننى أن أفعله لك أيها الحاكم ؟ »

فقال بنتلى : هذا طيب .. بحق مالى ، أنت رجل معقول ياجيدون .. ووالله إنها لنعمة فى هذه الايام . لافائدة من الحماقة .. فإن لدى واجبا أؤديه وقد حضرت اليك هنا فى مسأله صغيرة ـ وجدتك تهدد النظام والقانون ببندقيتك .. بحق السماء ياجيدون .. ليست هذه طريقة لائقة بالسود .. فإنها تؤدى إلى الفتنة »

فصاح به ماركوس « اقفل فمك الملعون ! »

وأعاد جيدون سؤاله « لماذا أنتم هنا ؟ »

فصاح هوجر : نحن الذين نوجه الاسئلة .. وليس أنت .

فقال الحاكم فى هدوء « اهدأ قليلا ياجاسون . فإن لجيدون الحق فى توجيه الاسئلة . فنحن فى أملاكه . ولكن لنا الحق أيضا فى توجيه الأسئلة .. ونحن نريد أن نؤدى المهمة إلى أتينا من أجلها فى هدوء . فقد حدث بعد ظهر أمس ياجيدون ـ أن تسلل ثلاثة من السود إلى الباب الخلفى لمنزل كلارك هاستنج . وكان كلارك فى عمله أما ابنته سالى الصغيرة

فكانت فى المنزل . وقال لها أحد هؤلاء السود .. من فضلك يامس سالى نريد قطعة من الخبز .. فنحن جياع ـ وأنت تعلم أن كلارك لم يــرد سائلا أسود فى حياته قط ـ وقد ذهبت سالى تبحث لهم عن بعض الطعام ولم يدر فى خلدها شىء .. وقد ظلت أختها الصغيرة التى تبلغ من العمر تسع سنوات ..تراقب السود »

وهنا وصل جيف وتروبر وماريون جيفرسون على عربة صغيرة . وقد أخذ جيدون عند رؤيته لهم . وخرج ماريون وجيف من العربة وبقى تروبر بها وقد أخذ يداعب بندقيته الـ « سبنسر » التى صحبهـا طوال أيام الحرب .. ثم قال فى صوته العميق الهادىء « أرفع أصبعك بعيداً عن زناد بندقيتك ياهوجر »

فاحمر وجه الرجل وانبعثت الشرارات من عينيه وتصلبت عضلاته .

وقال تروبر : ارفع أصبعك حالا .

فهمس بنتلى فى أذن هوجر « لاتكن احمقا واسمع لما يقوله لك »

ووصل آبنر ليت على حصانه الذى يستعمله فى جر المحراث . وقــد علق بندقيته على كتفه . وهمس بنتلى فى أذن هوجر مرة أخرى « أفعل مايريد »

وانسابت أصابع هوجر بعيدا عن زناد بندقيته .

فقال تروبر

ـ وأنت أيها الحــاكم ضع بندقيتك أنت أيضاً تحت قدميك

ـ ولكنك لا تستطيع ....

فقاطعه تروبر فى هدوء « تحت قدميك »

ووضع هوجر وبنتلى كل منهما بندقيته تحت قدميه . ووقف آبنر ليت إلى جانب الآخرين حول عربة الحاكم . وظهرت عربة فرانك كارسون على الطريق متجهة إليهم . وقال هوجر .

ـ لدينا ما نذكره لك ياليت

ـ وأنا لدى ما أذكره أيضا .

فقال جيدون « كان الحاكم يشرح لنا الآن لماذا هو هنا » وأعاد جيدون مارواه الحاكم ثم قال :

ـ استمر ياسيدى .. فنحن نريد أن نعرف بقية القصة

وانضم فرانك كارسون إلى الجمع . وتابع بنتلى حديثه وقد أخذ يراقبهم بطرف عينيه.. كانت الصبية الصغيرة تنتظر عند الباب تراقبهم فاتجه واحد من السود اليها وخلع ملابسها بالقوة . فأخذت تصيح وعادت اليها سالى مسرعة . ثم اندفعت سالى إلى حيث اعتاد كلارك أن يحتفظ بمسدسه وهنا هرب السود مسرعين »

فسأل جيدون : وما شأننا نحن وهذا ؟ .

ـ لقد عرف هؤلاء السود .. وتبين أنهم جميعا من هنا .. فى كارويل

وخيم على الجميع الصمت .. ثم قطعه آبنر ليت بضحكة طويلة . ثم تكلم جيف « إنه من الجنون .... » فقاطعه جيدون صائحا « أسكت أنت .. سأتولى أنا الكلام »

ثم وجه حديثه إلى بنتلى . « وماذ تريد ؟ . »

ـ نريد هؤلاء السود الثلاثة ياجيدون .

ـ بأية تهمة ؟

ـ الاعتداء ومحاولة الاغتصاب .

ـ ومن هؤلاء الثلاثة الذين تتهمهم ؟

ـ هانيبال واشنطن وأندروشيرمان وشخص أسود ثالث تقول سالى أنها رأته من قبل فى متجر أبيها وتعرف أنه من كارويل ولكنها لا تعرف اسمه

فقال جيدون : حسنا .. إننا لن نناقش قصتك. فإنها لا تعنينا فى شيء. الرجلان اللذان ذكرتهما لم يذهبا الى المدينة منذ أسابيع . وطوال يوم أمس كان هانيبال واشنطن يعمل فى بناء المدرسة . وكان أندورشيرمان

يحرث أرضه طول اليوم وهناك عشرون شاهدا على ذلك . فهذه هي اتهاماتك أيها الحاكم . وان أحدا من كارويل لم يذهب الى المدينة أمس

فقال هوجر « نحن لا نقبل شهادة للسود »

و تصلبت عضلات جيدون . واتجه آبنر لينت إلى العربة وقال « انني لست من السود يا هوجر . . انظر الى جيدا »

ـ ونحن لا نقبل لك شهادة أنت ايضا

فقال له آبنر في هدوء « منذ مدة طويلة صممت على قتلك أيها القذر »

فقال بنتلي « إن هذا الحديث لن يؤدي بنا إلى نتيجة . إننا لا نريد مشاكل ياجيدون »

ـ ونحن أيضا لا نريد مشاكل .

ـ ولكننا نريد أن نأخذ معنا هؤلاء الرجال . وسيحاكمون محاكمة عادلة

فقال جيدون « أمامك هنا شهود عدول »

ـ سأقوم بالقبض عليهم .. فهل تنوون مضى فى ذلك

فهز جيدون رأسه وقال « صور الأمر كما تشاء »

ـ لقد أتينا إلى هنا فى هدوء وفى خدمة القانون والنظام . فأحطم بنا وقاومتمونا بالقوة المسلحة . إن هذا شيء كبير ياجيدون

فقال جيدون « ستعود دون هؤلاء الرجال . ومادمت قد بدأت أيها الحاكم فإليك هذا . إنك كاذب . وليس هناك مخلوق عاقل يستطيع أن يصدق طرفا من قصتك »

فقال الحاكم « لقد استمعت اليك ... فأنا أستطيع أنا اسمع الأسود على بعد خمسة أميال . بل واستطيع أن أشم رائحته أيضا ولكنني سأقبض على هؤلاء الرجال ولو كلفني الامر تجنيد كل رجل فى هذه البلاد » .

فقال جيدون « أو خارج هذه البلاد أيضا . أو على الاصح تجنيد كل أفاق شريد قذر يستطيع هوجر أن يضع يده عليه . . . ولكن عليك أن أن تخرج الآن من كارويل يابنتلي . فأنت تقف هنا على أرضنا نحن. فابتعد عنها . واذهب إلى الجحيم »

ووقف الرجال متلاصقين يلاحظون عربة الحاكم وقد عادت إلى الطريق من حيث أتت . وخيم الصمت على الجميع برهة . ثم بدأ آبنر ليت يلعن فى حدة وطلاقه . وقال جيف « اننى لا ادرى ان كان من الخير أنك تحدثت على هذا النحو »

فهز فرانك كارسون كتفيه وقال « ان هذا لا يهمنى . . يدبرون هذا الامر منذ مدة طويلة وليس هناك من شىء يمكن أن يوقفهم »

وقال جيدون « لقد كنت أحذر هذا طوال أيام هذا الاسبوع .. منذ ان سحبوا جنود الجيش من مقاطعات الجنوب نتيجة لتلك المؤامرة الدنيئة . . لقد كنت أتوقع هذا فى كل لحظة من لحظات هذا الاسبوع . وأخيراً فقد حدث ما توقعت فى صباح هذا اليوم »

وقف تلاميذ المدرسة حيارى لا يفهمون لماذا توقف يومهم المدرسى فى منتصفه . . وأخذوا يراقبون الكبار وهم يدخلون مبنى المدرسة . وتسلل كبار التلاميذ وسط الرجال . . ولم يحاول أحدا منهم من ذلك . كان نصف الرجال الذين وقفوا فى القاعة الكبرى يحملون اسلحتهم معهم . . على اختلاف انواعها . . وكانوا جميعاً يتحركون فى بطء . . على نحو ما يفعل الرجال عندما لا يستطيعون التوفيق بين افكارهم واعمالهم وآمالهم.

وتكلم جيدون وسط هذا الجمع : « ليس هناك ما يدعو إلى الحديث الطويل فكلكم يعرف ماذا حدث ولماذا حدث أيضا . وانكم تعلمون جميعا أنهم اذا اخذوا اليوم ثلاثة رجال من بيننا وشنقوهم . . فلن تكون هذه غير بداية ».

وقال اندرو شيرمان فى لهجة مرهقة « اننى لا أريد أن اتسبب فى متاعب للاخرين . أليس لدينا ما يكفينا من المتاعب ؟ ومن المحتمل أنهم لا يفعلون بنا أشياء سيئة كالشنق مثلا . أليس من المعقول أن اذهب الى المدينة فينظرون إلى ويقولون .. لا .. ليس هذا هو المعتدى الاسود ؟ كيف يمكنهم ان يقولوا أننى أنا نفس الشخص الذى ارتكب مايقولون ؟ اننى لم اغادر هذا المكان طوال يوم امس بل طوال الاسبوع الماضى كله ؟ ».

فقال آبنر ليت « بل انهم سيشنقونك . . بكل تأكيد »

ووافقه جيدون على ذلك قائلا « انهم سيشنقونك حتما . أما انا فلن اتخذ اى قرار والامر متروك لكم انتم تقررون فيه ما تشاءون . وبعد ذلك اذا اردتم منى شيئا فسأفعله . ولكن عليكم انتم أن تقرروا . هذه هى القصة .. على أى حال كان لابد لهم فى هذا الاتهام ـ فهم يريدون اتخاذ طريق يبدو انه الطريق القانونى . ومع ذلك فإنهم لم يمكثوا فى الحكم حتى الآن غير ثمانية أيام . وهذه الأيام الثمانية ليست كافية لأن يهدموا فيها كل ما بنيناه فى ثمانية أعوام .

فسأل فرانك كارسون : حسنا وماذا ترى ان نفعل ياجيدون ؟

ـــ إننى أترك لكم أن تقرروا فى هذا ما تشاءون . وأنا اعتقد انهم سيعودون ثانيه هذه الليلة ـ وإلا فغدا . ولكن لا شك انهم سيعودون ثانية . ولن يكونوا اثنين فقط فى هذه المرة بل الكثير منهم . وعندئذ يبدأون مهمة تحطيمنا جميعا . وبعد فترة أخرى لن يعودوا فى حاجة الى اصطناع الوسائل القانونية . وتستطيعون انتم أن تظلوا فى بيوتكم وأن تقتلوا مثنى وثلاث ـ وربما نجا بعضكم . وتستطيعون ان تهجروا هذه هذه الارض وستجدوننا فى رقعة أخرى فى مكان ما من هذه الأرض . . وستجدون مكانا تهجعون فيه واذا استطعتم أن تكمموا منكم الأفواه فسيطول بكم العيش على هذا النحو . اما بالنسبة للبيض منكم فإن الامر يختلف قليلا فربما استطاعوا الاشتراك مع جاسون هوجر ـ ولو اننى لست متأكدا ان كان سيقبلهم أم لا ـ ومع ذلك فأنا اعتقد أن الامر لن يختلف بالنسبة للبيض ـ كما أنكم تستطيعون أن تبقوا جميعا وان تناضلوا .

فصاح جيف : ان هذا البلد مازال هو الولايات المتحدة الامريكية ومازال هناك قانون ودور للقضاء ! يا إلهى ـ ياسيدى ـ أحتم علينا أن نحطم حياتنا بأيدينا ؟

فقال جيدون : ليس هذا حتما علينا . فقد عرضت طرقا أخرى ولن

اتولى أنا اختيار طريق مذبا.وطوال الايام الثمانية الماضيةلم يكن هناك قانون غير قانون القوة ـ أما دور القضاء فليست لنا ـ ولأن هذه البلاد مازالت هى امريكا فانه مازالت انا القوة على الجهاد ! تحطيم حياتنا ؟ انى لا اقترح القتال رغبة فى الموت بل رغبة فى الحياة . اريد القتال والنضـــال حتى تستطيع البلاد كلها أن ترى ما يحدث هنا .

فقال جيف : لابد ان يكون هناك طريقا آخر

ـــ وما هو؟

ـــ ماذا لو عدت الى واشنطن؟

فقال جيدون : لقد حاولت هناك ولكننى فشلت

ـــ وماذا لو حاولت مرة أخرى ؟

ـــ سأفشل مرة اخرى ايضا وستكون الفرصة قد ضاعت . بل ان فى غد ستكون الفرصة قد ضاعت

فقال ويل بون فى صراحة وكسل: هب اننا عمدنا للقتال ياجيدون فإننى اريد ان ادافع عن نفسى ـ فأنا ارى الامور على هذا النحو . وكيف ذلك ونحن لسنا جيشا حتى يمكننا الدفاع عن مكان تبلغ مساحته ثلاثة آلاف فدان ؟

فوافقه جيدون قائلا : لقد فكرت فى ذلك. ويعلم الله اننى ما فكرت إلا فى هذا فإننا إذا عمدنا الى القتال فعلينا ان نضع النساء والأطفال فى مكان أمين لمدة طويلة وهناك مكان يتسع لمثل هذا الغرض ويسهل الدفاع عنه وهو هنا بالقرب منا ـ وأنا أعنى قصر كارويل القديم ـ فهو يقـوم على تل يشرف على كل ماحوله . والآن لقد تحدثنا بما فيه الكفاية . وعليكم انتم ان تتخذوا قراركم . . .

وبعد ساعة من الزمن كانوا قد اتخذوا قرارهم . ذلك القرار الذى نبع من كل ما كانوا يحسون من قوة وضعف وخوف وغضب وكل ما مـــلأ ذاكرتهم من آلام الماضى وجراحه العميقة . وبعد أن هدأت الضجة تكلم آبنر

ـــ سوف نقاتل ياجيدون . فهل ستبقى معنا ؟

فقال جيدون : سأبقى اذا أردتم ذلك .

— ونحن نريده

وجال جيدون ببصره فى البهو . ثم هز رأسه موافقا واخذ يجر رجليه جرا حتى وصل الى مقدمة البهو . وقد لاحظ الأخ بيتر وقد امتلات عينى ذلك الرجل الهرم بما لا يوصف من ألم . ونظر جيدون الى ساعته ثم قال «ان الساعة تقترب من الثالثة . وأيا كان ما نفعل فعلينا أن نفعله قبل ان يهبط الظلام . وانا لا أدرى إن كانوا سيعودون هذه الليلة أم لا . وربما انهم لا يعودون لبضعة ايام فاقترح ان نذهب بعائلاتنا الى القصر الكبير ومعنا غذاءنا وغطاءنا . ونحن نستطيع ان نتركهم هناك تحت الحراسة طوال أيامنا ونحن نعمل فى المزرعة . على الاقل حتى نطمئن على سلامتهم ونستطيع أن نستعمل جرس المدرسة كنذير خطر ولكننا لن نستعمل مبنى المدرسة نفسه ـ احملوا الى القصر الكبير كل ما تستطيعون حمله من أسلحة وطلقات بل احملوا الى هناك ما يمكن حمله من الدقيق والخبز واللحم المجفف»

وغادر الجميع مبنى المدرسة على النحو الذى أتوا عليه ، فى خطوات بطيئة . وفى صمت يكاد يكون شاملا . وقد جمع كل منهم حوله صغاره وهو فى طريقه الى بيته . وبينما كان جيدون فى طريقه الى الخارج استوقفه تروبر

— إننى لن أترك بيتى .

— لماذا ؟

— لن اتركه ياجيدون

— أنت وما ترى

وفى عبارات متقطعة استطاع تروبر أن يشرح الأمر لجيدون :

«لست مثلك ياجيدون فقد كنت عبدا وكان السوط ينزل على ظهرى بأقسى مما ينزل على ظهور الآخرين . لقد اشترانى ددلى كارويل فى المزاد العلنى فى أورليانز . ودفع فى مبلغا أعلى مما دفع فى أى عبد آخر . فقد كنت أضخمهم وأقواهم جميعا . كنت اعمل طوال اليوم وبأقسى مما يعمل الآخرون . لم أر

فى حياتى ساعة هادئة أو سعيدة . وعندما كانوا يريدون تأديب العبيد كانوا يضربوننى أنا اولا لأكون عبرة للاخرين . فتمد ضمنوا اننى لن أمــــوت من السياط »

ونزع تروبر قميصه من على ظهره وقال : انظر ياجيدون ! .

وكان الأخ بيتر وبعض الرجال الآخرين قد توقفوا ليستمعوا الى ذلك الحديث . ونظر الجميع الى ظهر الرجل الذى بدت فيه آثار السياط واضحة ومتناثرة فى كل مكان .

ـــ لا لن اغادر مكانى ياجيدون . فقد أنكسر ظهرى وظهر زوجتى فى العمل فى هذه الارض حتى استطعنا ان نملك جزءا منها بلا سيد ولا سياط . اننى فى بعض الاحيان أحس كأننى اريد ان أقبل هذه الارض . وقد أصبح لى بيتاً هوملكى أجلس فيه وتقوم امرأتى بإحضار الطعام إلى فيه سأبقى فيه ياجيدون ولن يستطيع احد ان ينزعنى منه .

فسأل الأخ بيتر : وأولادك ؟

ـــ سيبقون معى هم ايضا . فمن يصيبهم سوء .

كان من الممكن ان يثور جيدون لهذا ويصخب لو ان هذا حدث منذ ثمانية أعوام . أما الآن فقـــد اكتفى بأن يقول : حسنا ياتروبر . مادام هذا هو ما تريد .

وانقضى عصر ذاك اليوم ـ الثامن عشر من ابريل ـ وأهل كارويل يتحركون من منازلهم وارضهم نحو القصر الكبير . وملأت النساء العربات بالأغطية والاوانى والطعام وما وصل اليه ايديهن من اشياء صغيرة . ولم يدر الحديث الآن حول ذاك الشىء الذى ظلوا يتحدثون عنه طوال ايام الاسبوع . وكان الجميع فى حالة من التوتر تدفع الواحد منهم إلى الثورة وأشد الغضب لأتفه الاسباب .

وحمل جيدون معه بعض كتب قليلة . وحمل جيف معه ادواته وبعض الأدوية التى كان قد احضرها معه من تشارلستون . واخذ الجميع اسلحتهم .

وكان الأخ بيتر وابناء اللنى هم اول من وصل الى القصر الكبير . ولم يكن الزمن قد ترك آثرا كبيرا على المنظر الخارجى للقصر إلا فى بضعة مواضع نزل عنها الطلاء . وكان المبنى من بعيد يبدو محتفظا بعظمته القديمة وبجماله الرائع ولكنك إذا اقتربت منه رأيت النوافذ قد كسرت وعلقت بعض الابواب على بعض مصاريعها . وكان كل ما بالقصر قد بيع بالمزاد العانى ومع ذلك فإن الفراغ داخل القصر لم يقلل ما به من عظمة ورواء

واستطاع الاخ بيتر ان يبدأ العمل على التو . فلم يكن يحمل غير القليل جداً من المتاع . وسرعان ما كان الصغار الثلاثة الذين تولى امرهم بعد وفاة اللنى قد بدأوا العمل هم ايضا . وبعد قليل كان قد وصل غيرهم الى القصر ولم يكن من السهل إزالة ما بالقصر من اقذار واتربة تراكمت على مدى اثنى عشر عاما ومع ذلك فما ان بدأ سيل العائلات فى الوصول الى القصر حتى كان قد بدت عليه مسحة من النظافة . واخذ جيدون على عاتقه مهمة تعهد القادمين الجدد . وبالرغم من ان القصر كان يحتوى على اكثر من اثنين وعشرين غرفة إلا ان الامر كان يحتاج الى نوع من الحياة المشتركة . فكان على الرجال ان يناموا فيما كان فى الماضى قاعة الاستقبال الكبرى . وقام جيدون بتوزيع النساء والاطفال على حجرات النوم المتعددة عاملا على تجميع العائلة الواحدة على قدر الامكان وكان على عدد من الرجال ان يناموا فيما كان فى الماضى قاعة للطعام هم ومن تجاوز العشرة اعوام من الصبية وتتحول هذه القاعة نفسها الى قاعة للطعام خلال النهار . ووضع الطعام فى حجرة ملحقة بالمطبخ وعين جيدون لجنة من النساء للاشراف على عملية توزيعه واعداده وعين لجنة اخرى من النساء تقوم على شئون نظافة القصر . وقام الرجال بسد ثغرات النوافذ بالورق وتسلق هانيبال واشنطن ورجلان آخران الى مخزن المياه وأصلحوا ما به من عيوب وعين هانيبال فرقة من الصبية قاموا بملئه من مياه البئر .

وقد احضرت بعض العائلات التى لها اطفال صغار - بعض الابقار

ومعها غذاؤها الذى يكفيها لبضعة ايام . ولما كانت زرائب القصر الكبير قد احترقت منذ سنوات طويلة فقد عمد جيدون الى وضع الخيول والابقار فى الساحة الممتدة بين جناحى القصر وأقام لها حاجزا من هياكل العربات .

وقسم جيدون الرجال الى فرق وقرر الاكتفاء بالاحتفاظ بعشرة رجال، منهم بعض كبار الصبية بالإقامة فى القصر وبذلك لا يضطر الرجل الى الاقامة فى القصر أكثر من يوم واحد فى الاسبوع . وعهد إلى إحدى الفرق بالعناية بالخيول وفرقة أخرى للقيام بفض المنازعات داخل القصر فإن من المحتمل تسير الامور على مايرام فى هذه الليلة ولكن عندما يمتد الوقت بهذا الجمع الذى يحيا حياة مشتركة فإن من شأن اعصابهم ان تتوتر وان تثور المنازعات بينهم ويحتاج الأمر الى من يقوم بتسويتها .

واستطاع جيدون ان يصنع لنفسه منضدة صغيرة معتمدا على بعض الالواح والصناديق . وقد احضرت بعض العائلات عددا من المقاعد .

وما ان انتهت الضجة التى حدثت اثر تناول اول طعام مشترك لهم فى القصر حتى جلس جيدون يكتب عددا من البرقيات ـ كتب واحدة لرئيس تحرير صحيفة النيويورك هيرالد . فإنه ليذكر ان هذا الرجل قد ارسل عددا من المندوبين الى اماكن نائية غير معقولة ليوافوا صحيفته بقصص لا تساوى شيئا الى جانب ما يحدث الآن فى كارويل . وكتب برقية أخرى الى رئيس الجمهورية وأخرى الى وزير الداخلية وأخرى الى فردريك دوجلاس الزعيم الاسود المناضل . وبرقية أخرى الى كاردوزو يصف له فيها ما آلت اليه حالهم ويدعوه فيها الى القيام بعمل مشترك تنضم اليه كافة القوى العادلة فى الجنوب . وقال فى برقيته هذه الى كاردوزو : «انى ارجوك يافرانسيس أن تذكر اننا لسنا وحدنا وان آلافا من الرجال فى الجنوب من البيض والسود على السواء يمكن ان يتأثروا ويتحدوا نتيجة لما يحدث لنا فى كارويل . فقد رفض الناس ان يقبلوا القوة والطغيان والفزع تسيطر على مصائرهم»

وكان عندما يفرغ من كتابة كل برقية منها يعرضها على الرجال من حوله.

لقراءتها والتعليق عليها . وعندما انتهى منها جميعا انتحى بماركوس جانباً وقـــال له :

ـ أريد منك يا بنى أن ترسل هذه البرقيات . . انها على غاية من الأهمية.

وهز ماركوس رأسة موافقا .

ـ إذهب إلى كولومبيا . أريدك أن تذهب هذه الليلة بالذات وستصل إلى هناك فى صباح الغد عندما تكون مكاتب البريد قد فتحت أبوابها . خـــذ المهرة معك وسيسمح لك آ بنر ليت باستعمال سرجه . ومهما حدث فعليك ياولدى ماركوس أن تتأكد من أن هذه البرقيات قد أرسلت فعلا . . وعد بعد ذلك إلى هنا .

فقال ماركوس : « سأعود إلى هنا على التو »

وودعه جيدون إلى الخارج . . وأخذ يتأمله فى اعتزاز وفخار . . فهذا هو ابنه . . بقامته المديدة . . مليئا بالحياة والشجاعة والقوة . .

وبعد قليل كان جيدون راقدا على حشيته فى قاعة الاستقبال . كان غريباً أن ينام هنا وقد أحاطت به أصـــوات الرجال من حوله فى نومهم القلق وانفاسهم المتقطعة . وانساب ضوء القمر الفضى من فتحات النوافذ الطويلة فأضاف عنصرا جديدا إلى ذلك الجو الحالم الذى غرق فيه المكان . وعاد جيدون بذاكرته إلى سنوات عديدة مضت . . عندما كان فى الجيش . . بعيدا بعيدا عن كارويل . . وبعيدا عن راشيل الحبيبة الصغيرة . . بعيـدا عن أطفاله الذين خلفهم وراءه ـ وهبط النعاس على جيـدون ليستيقظ فجأة ، وبعد مالا يستطيع تقديره من زمن ، على صوت عدة طلقـات نارية يتردد صداها على طول الوادى ، أخذت تنساب بلا انقطـاع إلى أن توقفت وعاد السكون العميق مرة أخرى .

وهب الرجال فى غرفة الاستقبال من نومهم على صوت الطلقـــات . وتزاحموا على النوافذ يجولون بأبصارهم على ضوء القمر فيما حول التل الذى ظلت جوانبه تردد اصداء الطلقـات . . وهرع البعض بأسلحتهم إلى الشرفة

الفسيحة يحاولون أن يتبينوا الأمر فى ظلال القمر الخافتة المرتعشـــة . وصاحت النسوة من الطابق العلوى « ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ » وهب الصغار من رقادهم واخذوا يتحدثون فى قلق واضطراب .

وخرج بعض الرجال وداروا حول القصر ولكنهم لم يجدوا شيئا .

وظن جيدون أول الامر أن حادثا وقع لماركوس . ولكنه تبين أن الساعة وافت الآن على الثالثة صباحا ولا بد أن ماركوس يبعد الآن اميالا طويلة عن هذا المكان .

وكان جيدون فى هذه اللحظة يقف فى ساحة القصر يقول لآبنر ليت ..

ـ من أين تظن هذه الطلقات ؟

ـ يخيل لى أنها تأتى من الوادى من حيث يقيم تروبر .

وتذكروا تروبر الآن ، ونظر الرجال كل منهم إلى الآخر . وصاح فرانك كارسون « ياإلهى » وأشار هانيبال واشنطن صائحا « انظروا هناك »

كان على البعد ضوء أحمر يرتفع فى ظلمات الليل رويدا رويدا . وخيل الى الجميع أول الامر أنه جرن يحترق . وعندئذ ارتفعت ألسنة اللهب إلى السماء فعرف الجميع أن شيئا أكبر من مجموعة من الاعشاب ـ يحترق . وارتفع اللهب عاليا فى السماء . . وأخيرا صاح احدهم صيحة كان فيها الجواب على ما كانوا يفكرون فيه جميعا .

ـ انه منزل تروبر

ـ وطفلاه الصغيران

واندفع الجميع يخرجون من الشرفة . . فصاح فيهم جيدون صيحة أعادتهم إلى اماكنهم « لا تفقدوا صوابكم ! بالله لا تفقـــدوا صوابكم ! ابقوا هنا ! وانت ياهنيبال . . هل تستطيع أن تتسلل إلى هنـــاك لترى ما يحدث ؟ » .

واندفع هانيبال واشنطن إلى الخارج . . شبحا صغيرا اختفى فى ضياء القمر الشاحب . ووجم الجميع . . وأخذ بعضهم يراقبون جيدون الذى

مالبث أن قال « علينا أن نبقى جميعا هنا » لقد أردتم أن أكون القائد هنا فعليكم أن تتلقوا أوامرى . . أو ابحثوا لكم عن رجل غيرى »

فقال آبنر فى دعة وهدوء « حسنا ياجيدون »

« جيمس - أندرو - عذرا - على كل منكم أن يذهب الى ناحية من هذا البناء تبعد ثلاثين ياردة . . واذا رأى أحدكم أو سمع شيئا فعليه بالغناء »

وخرج الرجال الثلاثة . ودخلت بعض النسوة إلى الشرفة وهمسن فى اذن الرجال ولكنهن أعدن الى الداخل . وامرن بأن يعدن الأطفال الى نومهم . . ومع ذلك فإن احدا فى كارويل لم يستطع النوم بقية هذه الليلة . ومر الوقت دون أن يحدث جديد . . فتفرق الرجال إلى جماعات صغيرة يتناقشون ويقدرون الاحتمالات فى أصوات هامسة خافتة . وجلس بعض الرجال على سلم المنزل العريض واستند البعض إلى الأعمدة الفاخرة التى علت فى عظمة وثبات . وظل الجميع يراقبون تلك الناحية من التل التى اختفى هانيبال واشنطن فى ظلماتها . وبعد ساعة كاملة رأوا شبح رجل يتحرك فى الظلام .

- هانيبال ؟

ووصل الرجل لاهثا وقد غطى العرق كل قطعة من جسده . . كان عليه أن يلتقط أنفاسه أولا قبل أن يسرد عليهم ما رأى .

- واين الصغار ؟

فهز رأسه فى أسى : اظن أنهم احترقوا جميعا . فقد زحفت إلى أقرب ما يمكننى من المكان - ورأيتهم فى وضوح . . كانوا يتكلمون .

فسأله جيدون فى هدوء « وماذا سمعت ؟ »

- انهم ينتظرون حوالى مائتى رجل قادمين من كالهون . كما يعتقدون ان فرع عصابة الكلان فى جنوبى هذا المكان - ربما فى جورجيا - سيرسل رجالا آخرين . وهم يعرفون أننا هنا فى القصر .

وأخذ صبى فى السابعة عشرة من عمره يتقيأ وقد تدلى نصفه الأعلى من الشرفة . . فى حركات مؤلمة متتابعة . وبدأت ألسنة اللهب تخمد وحول بعض الرجال انظارهم إلى اتجاه آخر . فقد ظهرت على البعد من فوق قمم الأشجار أضواء حمراء جديدة .. وتحول الرجال واحدا أثر واحد ينظرون إلى آبنر ليت الذى بدا جامدا وقد تقلصت عضلاته ، يعض شفته السفلى حتى سال الدم على ذقنه . ودون أن تتحرك عضلة واحدة من عضلات وجهه بدأت الدموع تنهمر من عينيه . وتكلم فى شبه همس :

« هؤلاء الأوغاد ـ كل ما أملك وما اشتهيه طول حياتى ، فليلعنهم الله. فالرجل يعمل ويبنى ويحلم.. فليلعنهم الله »

وهمس هانيبال واشنطن « لماذا لا نوقفهم ياجيدون قبل أن يحرقوا المنازل كلها »فقال جيدون « ومن أجل هذا يحرقون المنازل ، انهم يريدوننا أن نغادر هذا المكان »

وقال آبنر ليت « انى ذاهب إلى هناك »

ـ لا . . لن تذهب . لقد تركت تروبر هناك . . وهاهو يرقد قتيلا بجانب جثة زوجته .

ـ سأذهب ياجيدون.

وارتفع صوت جيدون فى هدوء واصرار « لن تذهب . . . . » .

كان هناك شىء الآن . . فقد ارتفع صوت عزرا بالغناء . وسمعت حوافر عدد من الجياد تقترب . وظهرت على ضوء القمر الخافت اشباح رجال ملثمين . . توقفوا عندما أصبحوا على بعد مائة وخمسين ياردة من القصر . كانوا أكثر من عشرين فارسا ملثما متشحا بعباءة بيضاء .

ـ هاى . . !

فصاح جيدون « ماذا تريد ؟ ومن أنت ؟ » وسبحت الكلمات عبر الليل. ترتفع وتهبط « أيها اللعين جاكسون . . أنت تعرف من نحن ! اننا نريد.

هؤلاء الرجال ! »

فقال جيدون : لا فائدة فى الكلام .. لا فائدة »

ـ سنصعد للقبض عليهم ياجاكسون ! سنأتى بهم أو نحرق كل منزل فى هذا المكان .

وصاح جيدون فى حدة « انتشروا حول المنزل ! اختفوا بين الاخشاب ولا تطلقوا النار إلا إذا كان على بعد خمسين ياردة ! » .. وانتشر الرجال حول القصر زاحفين بين الأعشاب أما الرجال على الشرفة فقد استلقوا على بطونهم . ووقف جيدون وآبنر والأخ بيتروراء الأعمدة . و نظر جيدون إلى آبنر وكان يصوب بندقيته الطويلة القديمة الدقيقة . كان جامدا كالصخر ومع ذلك فكانت الدموع مازالت تنهمر على خديه . وهمس الأخ بيتر « فليغفر الله لنا .. فليغفر الله لنا » ورفع جيدون بندقيته وصوبها . كم من الوقت انقضى منذ آخر مرة صوب فيها هذه البندقية نحو رجل . ؟ .. وزحف الخط الابيض نحو القصر فى سرعة أول الأمر ثم فى بطء وتؤدة وعلى بعد مائة ياردة اطلق آبنر بندقيته وسقط أحد الفرسان الملثمين وعندئذ بدأ الرجال ذوا الأردية البيضاء يطلقون نيرانهم . وعندما أصبحوا على بعد خمس وسبعين ياردة انهالت عليهم نيران البنادق من كل مكان فى القصر بالرغم من تحذيرات جيدون . وسقط فارس آخر من على ظهر جواده وصاح فارس آخر من جرح مؤلم . وعندئذ توقف الخط الأبيض عن الزحف ووقف مترددا ثم استدار الفرسان عائدين مهرواين الى أن تلاشوا فى ضوء القمر .

وتقدم الرجال فى الشرفة فى بطء . كان رجلان ملثمان يرقدان بين الأعشاب .. فانحنى عليهما رجلان من كارويل وانتزعا لثاميهما . كان الرجلان ميتين .. وكانا غريبين لم يستطع أحد من كارويل أن يتعرف على أيهما .

ولم يصب أحد من رجال كارويل فى هذا الهجوم الأول ومع ذلك

فسرعان ما تلاشت الفرحة الصغيرة بهذا النصر عندما بدأت ألسنة الحرائق الجديدة ترتفع فى السماء . وتتابعت المنازل والأجران الواحد تلو الآخر .. يذهب فى طيات العدم يحمل معه آمال رجل . وتكدست النساء والأطفال ينظرون . .

وأشرقت الشمس وما زالت الحرائق تشتعل وترسل فى السماء أعمدة داكنة من الدخان .

وطهى النساء طعام الأفطار وجلس الجميع يأكلون ، فى هذه المرة بلا كلمات ولا ضحكات . وكان الشيء الوحيد الذى يرفه عن قلب جيدون أن ماركوس لابد وأن يكون قد أرسل البرقيات فى هذا الصباح .

● ● ● ●

ووصل ماركوس إلى كولومبيا لاهثا مجهدا بعد العاشرة صباحا . وأخذ الناس يحملقون فيه فى دهشة وعجب بينما كان يخترق شوارع المدينة على فرسه اللاهثة . فقد كان يخيم على المدينة جو من القلق والحذر . وذهب لتوه إلى مكتب البريد وربط لجام فرسه فى الخارج ودخل المكتب . كان متعبا مجهدا وتمنى لو ينتهى من هذه المهمة بسرعة ثم يذهب الى مكان هادىء فى المدينة ينام فيه . ولم يكن بالمكتب فى هذا الوقت غير عامل التلغراف . كان رجلا فى نحو الاربعين من عمره . وحملق الرجل فى وجه ماركوس هنيهة قبل أن يغادر مكانه ويتجه إليه .

ـ ماذا تريد ياولد ؟

ووضع ماركوس البرقيات أمامه وقال : ارجو أن ترى هذه البرقيات

ونظر الرجل إلى الأوراق وقال: ان هذا يكلف كثيرا من المال ياولد

ووضع ماركوس أمام الرجل خمس ورقات من ذات العشرة دولارات

ـ ولكن هذه كمية من المال لايمكن أن تتوفر لأحد من السود

كان جيدون قد قال لماركوس أرسل هذه البرقيات وأنا اعتمد عليك

وقد اصطنع ماركوس مزيدا من الهدوء والدعة وقال : انى ارسلها عن النائب جاكسون . وهو الذى أعطانى النقود .

وبدأ الرجل يقرأ البرقيات . ثم نظر فى اهتمام الى ماركوس . وإلى ملابسه المغبرة وإلى نقط الوحل المنتثرة عليها . وعندئذ وضع ماركوس يده فى جيبه وتحسس بأصابعه زناد مسدسه . وقرأ الرجل بقية البرقيات . ثم حملها جميعا وقال :

« حسنا . سأرسلها جميعا » والتقط بأصابعه الخمسين دولارا .

فقال ماركوس « ارسلها الآن وانا هنا . »

واحتد صوت الرجل : والآن اسمع ياولد - ان ارسال هذه البرقيات يحتاج إلى وقت طويل . ولا أريد احدا من السود ليرشدنى عن واجبى وعليك أن تخرج الآن ولا تشغل بالك بهذه البرقيات .

فقال ماركوس

لقد دفعت لك الثمن . فأرسلها الآن

ـــ أخرج من هنا .

وهنا أخرج ماركوس مسدسه ووضعه امام الرجل وقد صوب فوهته قريبا من بطنه وقد أخفى بجسده منظر المسدس عن أى مارفى الطريق ووضع اصبعه على الزناد .

ارسلها فورا . اجلس فى مكانك الآن وابدأ فى الارسال ..

واصفر وجه الرجل . وبدأت شفتاه ترتعدان . واخذماركوس يراقب الرجل وقد ذهب الى جهاز الارسال ومن ثم وضع البرقيات أمامه وبدأ يعمل فى الجهاز .

« استغاثه إلى المركز العام .. استغاثه من مكتب إرسال محطة كولومبيا .. رجل أسود يهدد موظف المكتب بإطلاق النار .. بلغوا البوليس فوراً .. »

وأخذ الرجل يكرر هذه الاشارة مرات ومرات . ثم تظاهر بأنه فرغ من البرقية الأولى فقذف بها إلى السلة وبدأ فى البرقية الثانية . ودخل المكتب

أحد موظفيه فنظر اليه ماركوس وأشار اليه بفوهه مسدسة « قف هناك . . إلى جانب الحائط تماما . » فوقف الموظف إلى جانب الحائط وقد فغرفاه ولم يستطع النطق . وراح الجهاز يرسل . . . « المركز العام .. لابد لى من استمرار الارسال . . » وانتهى من البرقية الثالثة وقذف بها إلى السلة . ودخل المكتب رجل أعمال متوسط العمر . فأشار اليه ماركوس بفوهة مسدسه فوقف الرجل إلى جانب الآخر . وألقى العامل بالبرقية الرابعة فى السلة وتابع الجهاز الارسال .. البرقية الخامسة . . ثم السادسة .

وقال العامل « والآن هاقد انتهيت »

فقال له ماركوس « ابق حيث أنت . . لا تتحرك » وسار بظهره نحو الباب حتى وصل إلى الطريق ومازال شاهرا مسدسه . وعندئذ سمع طلقة نارية وأحس بألم مفزع فى يده اليسرى كأنه ضربة مطرقة كبيرة تركت يده اليسرى مدلاة بلا حراك . وقد استطاع بشكل ما أن يظل واقفا على قدميه ولكن المسدس سقط من يده .

واندفع ناحية فرسه وفك اللجام وحاول أن يضع قدمه فى السرج . كان رجلان يجريان فى الطريق نحوه ومع كل منهما بندقيته . ووقف أحدهما ليصوب بندقيته إلى ماركوس .. واخترقت القذيفة فخذه فى هذه المرة . واندفع أربعة رجال مسلحين إلى الركن المقابل . وجرى الناس فى كل اتجاه .

وزحف ماركوس على السرج ووضع احدى قدميه فيه وهمس فى أذن فرسه « اجر ياصغيرتى .. إجر » واخذ الفرس يعدو . . وتتابعت طلقات الرجال من كل ناحية واخترق الرصاص كل قطعة من جسم ماركوس . وأصيبت الفرس وعثرت فألقت بماركوس على الأرض وراحت تعدو إلى غير وجهة . واقترب الرجال من ماركوس

في بطء وحذر ومازالوا يطلقون نيرانهم عليه ويتوقفون كل بضع خطوات ليزودوا بنادقهم برصاص جديد . وأخيرا ادركوا أنه قتل فاقتربوا منه وقلبه أحدهم بحذائه .

• • • •

كان ذلك هو اليوم الثانى وقد اقترب رجال الكلان بصفوفهم من القصر الكبير . . كان عددهم قد أصبح الآن حوالى الخمسمائة أو الستمائة رجل وكانوا أكثر نظاما من قبل . وقد اقتربوا من القصر حتى أصبحوا على مرمى النار منه وحفروا لأنفسهم خنادق فى الأرض ظلوا يطلقون النار منها وقد أصيب بغلان وبقرة فى الحظيرة التى انشئت للحيوانات بين جناحى القصر خلف هياكل العربات .. وكان عليهم ذبح الحيوانات الثلاثة بعد ذلك ولكن لم تحدث أية اصابات أخرى . فقد أنزل النساء والأطفال إلى قاعة الاستقبال . وأصدر جيدون أوامره بألا يرد أحد بأطلاق النار سوى ويل بون وهانيبال واشنطن وكانا أدق من يصوب بندقيته بين الحاضرين . وقد وصل الرجلان إلى سطح القصر وانبطحا على وجهيهما جنبا إلى جنب واخذا يصوبان بندقيتهما فى عناية ودقة وصبر نحو الهدف .. ثم يطلقان النار . واخذ ويل بون يتحدث عن جده الكبير فقد كان جده الكبير يصيب الأرنب وهو على بعد مائة ياردة .. وكان جده الكبير يستطيع أن يفعل هذا وأن يفعل ذاك حتى صاح به هانيبال واشنطن وقد نفذ صبره :

ـ بالله . . أى شيطان كان جدك الكبير هذا ؟

ـ كيف أيها الاسود المسكين لا تعرف .. انه ذلك الرجل الذى أحمل اسمه ؟

وقد لفت صياحهما هذا أنظار رجال الكلان . فتحولت اليهما فوهات أكثر من مائتى بندقية وبدأ الرصاص ينهال على حافة الجدار الذى يستندون اليه يثير قطع الحصى فى وجهيهما وبعد عشر دقائق من الضرب المتواصل تنهد هانيبال واشنطن ومال فى هدوء مستندا إلى بندقيته .. وهزه ويل بون .

وبدأ ذلك الرجل الابيض يسب ويلعن في حدة وعنف يطلق رصاصه في اندفاع حتى ارتفعت حرارة بندقيته إلى حد عظيم . ولكن سرعان ماسكتت بندقيته هو الآخر .

واستمر اطلاق النار على القصر طوال الليل . وفى الفجر سكن كل شيء .

وتناول الجميع طعام افطارهم في صمت .. وجلس الاطفال يطالعون قصة الاميرة النائمة فى صمت . . وفى صمت أيضا اتجه بنتلى إلى القصر يحمل فى يده علما أبيض وصاح :

ـ هل استطيع الصعود ؟

ولم يأت أى جواب على صيحته . فتقدم فى بطء حتى أصبح على بعد خمسين ياردة من القصر وبدأ يصيح . . . فقد كان لدى أهل كارويل طبيب هو جيف جاكسون . وكان دكتور ليد العجوز مخمورا منذ اسبوع وكان لدى رجال الكلان جريحا . . رجلا كسرت ساقه فإما أن تبتر هذه الساق أو يموت الرجل فهل يستطيع جيف جاكسون أن ينزل ليبنى بهذا الجريح ؟ وهم يعدونه بأن يسمح له بالعودة فورا .

فحلق آبنر ليت فى وجه جيدون . . وابتسم جيدون فى مرارة وقال «أنت ترى أنهم يعرفوننا جيدا . . أنهم يعرفوننا أكثر مما نعرفهم»

وعاد بنتلى إلى صفوفه . . وخرج جيف الى الشرفة فسأله جيدون هل سمعت ماقاله ؟» فهز جيف رأسه . وقال آبنر ليت «دع جريحهم المنكود يلقى حتفه»

وقال فرانك كارسون : انى اقسم بالله لو أتى هذا الوغد الى هنا مرة اخرى فسأقذف به الى الشيطان .

وقال جيف : سأذهب الى هناك .

فأمسك جيدون بذراعه وجذبه اليه وصاح به ايها الغبى الاحمق ! حتى ولدى ! ألا أستطيع أن اجعلك تفهم هذا ؟ ألا استطيع أن أقنعك بأننا

لا نتعامل مع قوم متحضرين .. وأننا لا نتعامل مع أعداء كما تفهم أنت معنى الأعداء ؟

إن هؤلاء الرجال هناك يريدون أن يقضوا علينا ! وليس بهم إنسانية على نحو ما نفكر فى الناس ! إن وعدهم لا يعنى شيئا ! وليس فى نظرهم فاصل بين الخير والشر ! انك لا تستطيع مناقشتهم فلديهم دائما حججهم الوقحة ! »

فقال : جيف ومع ذلك فأنا ذاهب إلى هناك .. لقد أقسمت أن أصلح .. أن أصلح فى الانسان ما يفسده الانسان .

فقال جيدون : لا .. لقد خسرت ولدا .. ولكنه كان على الأقل يفهم ويعرف لماذا نقاتل .

فقال جيف : فى هدوء « إذا أردت أن تبقينى هنا .. فاقتلنى » .

فصاح جيدون .. « إذن فليرحمنى الله .. » فقاطعه آبنر ليت قائلا « دعه يذهب ياجيدون »

● ● ● ●

انتهى جيف من عمليته الجراحية وحمل الرجال جريحهم يئن وقد ذهب نصف وعيه . وإذ كان جيف يجفف راحتيه قال للرجال الذين تجمعوا حوله يراقبون فى دهشة « إنه فى حاجة إلى الراحة . وعلى الطبيعة أن تأخذ مجراها بعد ذلك . وعليكم أن تحتاطوا ضد خطر تسمم الجرح . فهذا هو الخطر الاساسى »

وكان جيف مرهقا فان اجراء عملية جراحية على ملاءه فرشت على الارض تحت ضوء الشمس ليس بالامر الهين . ثم إنه قد عالج بعد ذلك أكثر من عشرة آخرين من جرحاهم . وقال جيف .

ـ ساذهب الآن ياسيدى

كان جيف منحنيا على حقيبته يغلقها . فرفع بصره الى الرجل الذى تكلم كان رجلا عريض المنكبين وقد لفحت الشمس وجهه ووضع يده على مسدسه .

ـ قلت إننى سأذهب الآن .

وقال جاسون هوجر وكان يقف إلى جانب بنتلى « انك طبيبنا جاكسون، وهذا شيء قد حدث بالفعل . وعندما يصبح أحد السود طبيبا فانه يؤدى إلى هذا الفساد الذى نعانيه الآن »

وحملق جيف فى وجه الرجل برهة ـ ثم أقفل حقيبته بعنف وحملها وبدأ فى سيره . ووقف الرجل العريض المنكبتين فى طريق جيف .

وقال « سيدى »

فسأله جيف « ماذا تريد ؟ »

« أريدك أن تفعل كما يجب أن يفعل كل أسود ! عليك أن تقول ياسيدى عندما تتحدث إلى من هم خير منك ! »

ونظر جيف إلى الرجل فى عجب ودهشة وقد استولى عليه شيء من الخوف وشيء من الرعب أيضا . ومع ذلك فقد ثار فى نفسه بالرغم منه عجب منطقى . . بل ورغبة فى أن يناقش هذا الرجل ويقنعه .

ـ أتريدنى أن أقول ياسيدى . . هل هذا هو كل شيء .

ـ نعم

فهز جيف رأسه موافقا وقال « سيدى هل تسمح لى بالعودة ياسيدى » وضحك بنتلى . وقال جاسون هوجر « انك لن تعود ياجاكسون »

ـ ماذا تعنى ؟

ـ إنك لن تعود . . هذا هو كل شيء .

وقال بنتلى فى هدوء « غدا لن يكون هناك مايدعوك الى البقاء هناك يا جاكسون وخير لك الآن أن تبقى هنا »

وأخذ جيف يجيل بصره بينهم جميعا وقد اصبح خوفه جزءا من عجبه وفكر فى أن المستحيل لايمكن أن يقع بطريقة علمية . فهناك دائما سبب

مدافع فقال « لقد أتيت هنا لأننى رأيت من واجبى أن أساعد الجرحى والمرضى . هل تفهم ذلك ؟ لقد أتيت إلى هنا لأنك طلبت منى ذلك . ولم استطع ـ وأنا الطبيب ـ أن أرفض لك هذا الطلب فهل تستطيع ـ لأى سبب ـ أن تطلب منى البقاء هنا ؟»

فقال الرجل عريض المنكبين « ياسيدى ... أيها الأسود اللعين الوقح !»

فهز جيف رأسه وقال « انى ذاهب » ونحى الرجل العريض المنكبين عن طريقه . وكان آخر ماوعته ذاكرته . . ذاكرته التى لم تعد بعد ذاكرة صوت طلقة . . ثم لاشى بعد ذلك . وتمدد جيف على الأرض وحتيبته من تحته والرجل العريض المنكبين يقول .

ـ هذا الاسود الوقح ..!!

• • • •

فى اليوم التالى كان جيدون يراقبهم وهم يثبتون أحد مدافع الميدان فى موضعه الذى كان يبعد عن القصر حوالى ثلث الميل . . ولم يستطع جيدون أن يدرك كنهه فى أول الأمر . ولكنه عندما فكر فى أنهم لم يطلقوا النار على القصر طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية ، أحس بأنهم ينوون شيئا غير عادى . وكان هذا أحد احتمالات كثيرة توقعها . وقال فرانك كارسون .

ـــ لا بد أنهم أتوا به من أحد القلاع

فقال جيدون فى مرارة : «وهل هذا أمر مهم .» ولم يكن هناك شىء يمكن أن يكون أسوأ من هذا . لقد كان جيدون هادئا هدوءاً عجيبا عندما قال لأحد الرجال « إذهب بالصغار جميعا الى البدروم . خذهم جميعا »

إنك تحاول دائما أن تتحاشى النهاية . فتستمر فى نضالك . وهناك دائما الامل . وأنت تستطيع وسط كل هذا الهول أن تدرك ان هناك شيئا وراء كل هذا . وراء النهاية المحتومة . وهذا مايربط بينك وبين الآخرين

.. كل هؤلاء الرجال الشجعان الخائفين الذين ما زالوا رافعي الرؤوس وقد أصبحت النهاية محتومة

ووقف جيدون فى الشرفة ومعه فرانك كارسون وليسلى كارسون وفرديناند انكولن . يراقبون الرجال على البعد يحاولون ضبط مقاييس المدفع

وقالت ليسلى كارسون فى تشفى « إنهم لا يحسنون الرماية »

وانفجرت أول قذيفة على بعد مائة ياردة من أحد جانبى القصر وانفجرت أربعة قذائف أخرى بعيدا عن القصر أيضا . واستدعى جيدون رجاله جميعا إلى داخل القصر . وانبطح الجميع وراء الحواجز وأخذوا يصوبون بنادقهم فى يأس الى الاهداف البعيدة فى غير أدنى عناية بكمية الذخيرة الآن . كانوا يطلقون النار لانه كان لا بد لهم من عمل شىء ، ومن المقاومة بشكل ما . وانفجرت أول قذيفة على القصر فى الطابق العلوى وتساقطت الحجارة والتراب .

وصاح جيدون « إرفعوا الراية البيضاء . ارفعوها عاليا وسنحاول أن نخرج النساء والاطفال من هنا »

وخرج جيك ستر إلى الشرفه ومعه قطعة كبيرة من الورق الأبيض ووقف هناك يلوح بها الى الأمام وإلى الخلف . وقد رآه رجال السكلان فحولوا زاوية المدفع قليلا . وانفجرت القذيفة التالية فى الشرفة حيث كان يقف فيما مضى .

ووقف الأخ بيتر بين الجميع . بين النساء والصبية الذى بدأوا يشبون الى فترة المراهقة بعذاباتها وخيالاتها . والفتيات اللاتى برغت نهودهن قوية كتفاحات نضرة ، وسط الجدات والرضع والاطفال الذين بدأوا يدركون سر الكلمة . قال لهم فى غير خوف « إن الله سندى وأملى . فماذا أخاف إذن ؟ »

وانفجرت قذيفة فوق الرؤوس ـ ومد مستر ونتروب ذراعه حول كتفي صبي أسود وحول فتاة صغيرة انسدل شعرها الذهبي وراء ظهرها

وسأل الأخ بيتر « فماذا اخاف اذن ؟»

وردد الجميع حوله « آمين »

« فالله هو القوة فى حياتى ... »

كان آخر ما يدركه جيدون هو البداية عندما كانوا عبيدا . وكيف كانوا يباعون ويشترون كقطيع من البقر . وكيف كانت ظروفهم أقسى من أولئك الذين لم يكن جلدهم أسود . ولكنهم كانوا يعملون هم أيضا بأيديهم . وكيف أنه لم يكن فى هذه البلاد شيء يدعو الى الأمل ، وكيف أنه بالرغم من ذلك فقد كان الناس يأملون .

كان آخر ما ذكره جيدون عندما سقطت القنبلة وانفجرت وأوقفت ذاكرته عن العمل ـ هو قوة هؤلاء الناس ، البيض والسود على السواء تلك القوة التى حملتهم للاشتراك فى حرب طويلة ومكنتهم بعد ذلك من أن يبنوا على انقاض الخراب ، أملا كان أعذب من كل أمل فكر فيه إنسان ومن هذه القوة ظهر ذلك الخليط الغريب ، بل والبسيط من الناس ، ولده ماركوس وولده جيف وزوجته راشيل وابنته جيني وذلك الرجل العجوز الذى كان يسمى بيتر . وذلك الرجل الابيض الطويل القامة أحمر الشعر آبنر ليت ، وذلك الرجل الاسود الدقيق الصغير هانيبال واشنطون وكثيرون غيرهم . على اختلاف الظلال والألوان . بعضهم قوى وبعضهم ضعيف . بعضهم عاقل وبعضهم أحمق . ومع ذلك فقد كون الجميع معا ذلك الشيء الذى كان آخر ما ذكره جيدون جاكسون . ذلك الشيء الخالد الذى لا يغلب ...

ووقف الرجال حول قصر كارويل .. أولئك الرجـــال الذين غطوا وجوههم من وجـه الشمس بأقنعة بيضـاء .. وقفوا يراقبون القصر القديم تلتهمه النيران . كانت اخشابه جافة ولذلك فإنه عند ما بدأت النار لم تكن هناك قوة على الارض تستطيع إخمادها . وظل القصر يحترق طول اليوم وعند ما هبط الليل لم يكن قد بقي منه غير المداخن السبع المرتفعة الـتى بناها والد هانيبال واشنطن ...!!

أصداء الحرية

كفاح الشعوب العربية المجيد ضد الاستعمار وأعوانه ..
فلسطين ومأساتها الدامية .. قضية السلام ومؤتمر باندونج ..
الجزائر وصراع الحياة أو الموت الذى تخوضه ضد الاستعمار الفرنسى..
مصر وكفاحها من أجل التحرر والاستقلال . قضية السودان الحبيب.

نظم : عبد الله شمس الدين مقدمة : عزيز أباظة الثمن ١٥ قرشا

روائع الادب الصينى :

المؤامرة أوشو يوانه بقلم : كو - مو - جو

قصة كفاح الشعب الصينى للتحرر من الاستعمار الخارجى وأعوانه فى الداخل لإقامة نظام تسوده العدالة والحرية والخير للجميع .

مقدمة بقلم عبد الرحمن الشرقاوى شعر صلاح عبد الصبور

تعريب عبد العزيز فهمى الثمن ١٠ قروش

روائع الادب الفرنسى :

المومس الفاضلة بقلم : جان بول سارتر

قصة كفاح « السود » ضد الاضطهاد العنصرى فى أمريكا بلاد «البيض».

تعريب مازن الحسينى الثمن ٨ قروش

روائع الادب البولندى :

مأساة روزنبرج بقلم : كروتشكوفسكى

مقدمة بقلم الشاعر الفرنسى الكبير لويس أراجون

قصة شهيدى السلام الذين ذهبا ضحية سياسة مكارثى وول ستريت .

تعريب عبد العزيز فهمى الثمن ١٠ قروش

ما و ما و

صورة من كفاح كينيا الباسل ضد الاستعمار البريطانى الغاشم .

تأليف ابراهيم موسى الثمن ٨ قروش



- ولد بالقاهرة فى ٥ مارس ١٩٢١
- تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة ١٩٤١
- شغل عقب تخرجه وظيفة معاون إدارة ببعض مراكز الوجه البحرى ولكن سرعان ما قدم استقالته مفضلا العمل بالمحاماه
- بدأ اتصاله بالصحافة عام ١٩٤٥ واشترك فى تحرير عدد من الصحف التى كانت تتميز بأنها من صحف الرأى وتولى مراكز رئيسية فى بعض الصحف اليومية
- اجتذبته الاذاعة ، فبدأ عمله فى الاذاعة المصرية عام ١٩٥٠ وهو يشغل بها الآن منصب مراقب برامج المنوعات ويقدم برنامجين شعبيين . أيام زمان . ومجلة الهواء
- متزوج وله ولد وبنت

التوزيع فى السودان والبلاد العربية
شركة فرج الله للصحافة
ص. ب. ١٥٢٥